عذابات العلم

خلدون ربابعة



الطبعة الأولى

٢٠٢١م

عذابات العلم

خلدون ربابعة

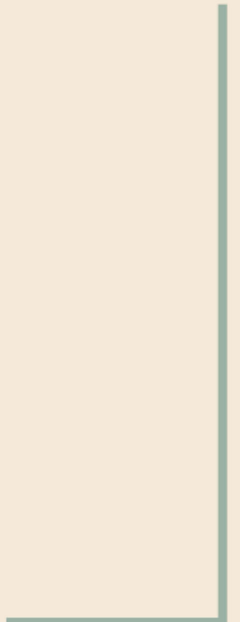
المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٠/١٠/٤٠٦٨)

٥٠٩.٢
ربابعة، خلدون عبد القادر
عذابات العلم/خلدون عبد القادر ربابعة.ـ إربد: المعد، ٢٠٢٠

( ) ص.
ر.إ.:٢٠٢٠/١٠/٤٠٦٨.
الواصفات: /العلماء//الباحثون//العلوم/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو جهة حكومية أخرى.




عذابات العلم



بسم الله الرحمن الرحيم



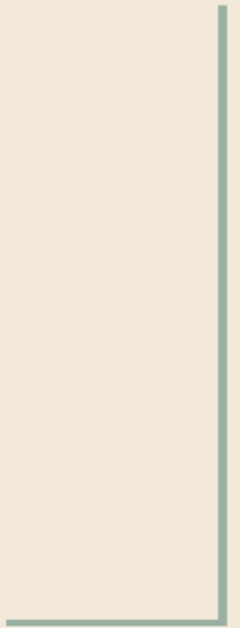
الإهداء

كم تمنيت أن أعيش بين الخوارزميات والمعادلات والأكواد، كم تمنيت أن تحيطني أحياء وكائنات وصور للجينات والكروموسومات... تمنيت كثيرا، واجتهدت قليلا، وسرعان ما تبددت الآمال وصارت أحلاما جميلة تعيش معي ولا تفارقني.

واليوم أخذت على نفسي عهدا أن أُمهِّد الطريق للعلم وأهله، وبدأت بتعريف الناس عذابات العلم وأخبار أهله المعذبين، بهدف تحقيق الرعاية والعناية.

فإلى العلم والعلماء أهدي هذا الكتاب.



ما حصل قبل الكتابة

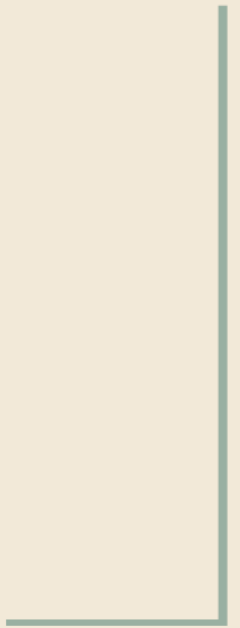
بحثت عن قلم لأسجل فكرة لاحت في الأفق، خشيت أن تتلاشى فأنسى وأنشغل بغيرها، تناولت القلم الأول فكان قلماً يكتب الحبر الأسود، تركته ورغبت الكتابة بقلم آخر يكتب اللون الأزرق، بحثت لم أجد قلماً أزرق في البيت، قلم ثانٍ وثالث كلها أقلام تكتب اللون الأسود...

ثم كتبت بقلم الحبر الأسود عن العلم والعلماء

(عذابات العلم)

وبالله التوفيق



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد:

فقد بدأَت الفكرة حين زارني في المشفى نخبة من أعز الأصدقاء كان منهم الأخ الفاضل (محمد مهدي قشلان) أبو الهدى، وكان ذلك حين ابتليت بمرض السرطان سنة (٢٠١٨م)، نظر إليّ الأخ العزيز أبو الهدى وقال: "**ما رأيت أحدا من أهل العلم إلا وهو في شدة وبلاء**".

ثم تابعت مسيري في الحياة، وتحسنت ولله الحمد الأمور الصحية، وزال المرض، وبقيت آثاره وتوابعه.

وما زالت كلمات الشيخ تجول في خاطري، وبعد قُرابة عام سألني أحد الأصدقاء سؤالاً حول موضوع مأساةٍ يعاني أثرها منذ زمن:

شاب تجاوز الثلاثين من عمره...

يحمل شهادة الهندسة الصناعية....

يحفظ القران الكريم كاملاً عن ظهر قلب...

يعمل بجد ونشاط....

يحقق في عمله أفضل النتائج...

مشغوف بجرد الكتب وخصوصاً المطولات منها...

يواظب على دروس العلم ومجالس العلماء صاحب هوايات متعددة...

وفي مجالات مختلفة...

له العديد من النشاطات التطوعية...

هو في نظر الناس إنسان مثالي بمعنى الكلمة، لكنه يعاني من القلة وشدة حاجته وفقره...

جاء يسأل: هل يقدم على مشروع الزواج؟ وكيف سيعيش؟! فربما يظلم زوجته بقلة نفقاته، هذا إذا علمت أن عمله غير ثابت وغير مستقر فربما يفصل عن عمله في أي وقت...

يسألني الشاب بحرقةٍ وألم...

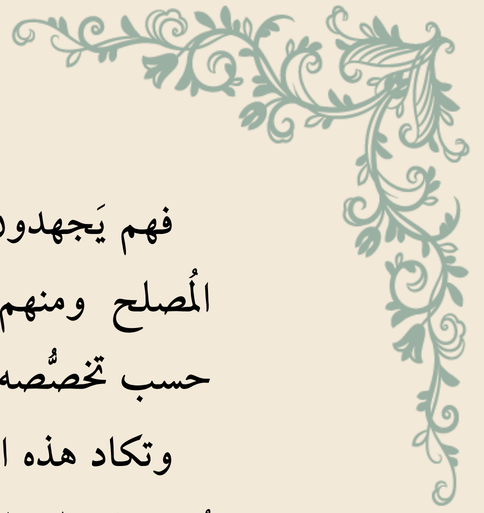
أجبت إجابة تعجب فيها واستغراب أيما استغراب.

قلت للشاب:

إنها:

(عذابات العلم)

وهو كتاب يسلط الضوء على فئة من المجتمع خدمت العالم بأسره، في حين تجد هذه الفئة صعوبة وتعباً وحاجه في الحياة وقسوة حتى في أساسيات العيش.



فهم يَجهدون ويَسهرون ويَتعبون؛ منهم المُفكِّر ومنهم المُصلح ومنهم الصَّانع ومنهم العامل...، كل يعمل حسب تخصُّصه، ومن حيث يشعر أنه يخدم البشرية.

وتكاد هذه الفئة تُنسى ولا يُلتفت إليها إلا قليلا، ولا يُقدم لها إلا اليسير مما تستحق، وقد جاء هذا الكتاب ليسلط الضَّوء على صورٍ من معاناة بعض العلماء، ثم يضع الكتاب آمالاً وتطلعات بين يدي القارئ الكريم حتى تتخلص مجتمعاتنا من عذابات العلم، أو تكون المجتمعات بأسرها عونا لأهل العلم لمواجهة التحديات.



الأهداف العامة للكتاب

يهدف هذا الكتاب إلى مجموعة من القيم والأخلاق والمبادئ تظهر من خلال الفئة المُستَقْبِلَةِ، وعلى النحو الآتي:

الهدف العام والرئيسي للكتاب

أن يعرف الناس قيمة العلماء وما يعانون من آلام وأحزان، فيقدموا للعالِم الرعاية والتسهيلات، والاحترام والتقدير، فيتفرغ العالِم للعلم ولا يلتفت إلى غيره من مشاغل الدنيا.

وهذا المقصد الشريف لا يتحقق بجهدٍ فردي ولا يكون تاماً إذا لم يكن ثمة اهتمام أسريٍّ ومجتمعي وسياسي ودولي، وحتى لا تبقى حركة العلم والمعرفة والاختراع والابتكار نشاطات فردية في مجتمعاتنا جاء هذا الكتاب.

ونحن جميعا مسؤولون عن تحقيق الأمن والكفاية لأهل العلم وفي مختلف صنوف العلم والمعرفة.

العلم يخدم العالَم بأسره؛ لذلك يتوجب علينا أن نقف جنباً إلى جنب ويداً بيد لتحقيق آفاق المعرفة، وسُبُلِ الكفاية والراحة لأهل العلم.

فئة العلماء

إذا كنت من أهل العلم وفي أي مجال من مجالاته وفنونه فأحرص على الاستفادة من الكتاب على النحو الآتي:

١.احرص أخي العالِم على تعريف الناس بجهودك وآلامك وأحزانك، أنشر ذلك في مجتمعك؛ حيث إن كثيرا من الناس يظن أنك مرتاح البال صافي الذهن، خال من الآلام والأحزان.

٢.احرص أخي العالِم على استغلال طاقاتك وجهودك وأوقاتك بالعلم النافع والمفيد، وإياك أن تُضيِّع أوقاتك وتهدر جهودك في أشياء لا طائل منها.

٣.احرص أخي العالِم على توفير الكفاية المالية لجهودك إما من خلال حسن التصرف والتدبير، أو من خلال تولي مشاريعك من قبل الدولة أو أصحاب الأموال الراغبين في فعل الخير أو حتى الطامعين الباحثين عن المال، ولكن دون إلحاق الضرر بالآخرين.

٤.أخي العالِم الفاضل احرص على استخدام علمك فيما ينفع، وإياك إياك أن يكون علمك وسيلة للهدم أو القتل أو غير ذلك من صنوف المصائب التي تجر الدمار للعالم.

وغير ذلك الكثير من الفوائد المنثورة في طيات الكتاب.

فئة الشباب واليافعين

إذا كنت من فئة الشباب واطلعت على هذا الكتاب فأعلم أن الكتاب يخاطبك ويوجهك ويرشدك إلى عدة أمور:

١.احرص على أن تكون عالماً في فنٍ من الفنون، اجتهد... فكر... ابحث عن شخصيتك العلمية.

٢.فترة الشباب فترةٌ مليئة بالجد والنشاط ابتعد عن الفراغ وابدأ العمل والإنتاج.

٣.كن عالماً بما تعمل، إذا كنت قد انخرطت في عملٍ من الأعمال فعليك ان تجدَّ وتجتهد في العمل وأن تعرف كل صغيرة وكبيرة في عملك حتى تكون عالماً بما تعمل.

فئة المربين

بعد اكتسابك أخي المربي خبرات عظيمة في الحياة احرص على تعريف الناس فضل أهل العلم، وأهمية جهودهم.

لابد أنك شاهدت أو خالطت عالماً من العلماء، أو قرأت قصة من قصص أهل العلم، فحاول أن تُعرِّف

الناس فضائل أهل العلم وتقديرهم واحترامهم، فأنت المربي صاحب الخبرات.

أهل العلم في مخيلة الناس

بعد بيان الأهداف لا بد من مقدمات هامة أولها: يُكثر خطباؤنا من ذكر أهل العلم والثناء عليهم والحديث عن فضائلهم وتقديرهم وتوقيرهم...

فشاع بين الناس أن أهل العلم هم فقط أهل الدين.

وهذه النظرة نظرة قاصرة لأهل العلم والصحيح أن كل من تعلم وبرع في علمه ونبغ في فنِّه صار عالماً؛ فهناك عالم اجتماع، وعالم رياضيات وعالم أحياء، وعالم كيمياء، وعالم لغة...، وهكذا وفي كل فن وفي كل علم من العلوم، ولا يشترط أن يُقدم العالِم اختراعا أو اكتشافا حتى يُلقَّب بالعالم، بل يكفيه معرفته ودرايته بعلمه الذي تخصص فيه ووصل فيه إلى أعلى المستويات.

وما يسلط عليه الكاتب الضوء هو جميع العلوم والمعارف ولا يقتصر فقط على علماء الدين.

الأمثلة بين الواقع والتراث

بالرغم من وجود أمثلة في واقعنا المعاصر لعلماء معذبين إلا أنك تجد الكثير من الكتاب والخطباء والوعاظ يُعرض عنهم، ويتوجهون إلى ذِكر حالات مأساوية لعلماء من عبق التراث، وهذا الأمر حسن ولكن فيه تهميشُ واقعٍ وردٌّ إلى التراث مع وجود صور مشاهدة فيها أجمل الفوائد، وترشد إلى أهدى السبل، ولا يعني هذا التقليل من أمر التراث؛ فالتراث يُحترم ويُقدَّر -كما سيأتي الحديث عنه لاحقا في القسم الثاني من الكتاب- ، لكن الكاتب استدرك هذا الأمر وذكر أمثلة من الواقع الذي شاهده وعاينه، إلا ما دعت إليه الحاجة من الحديث عن مأساة العلماء من التراث العالمي.

اعتذار

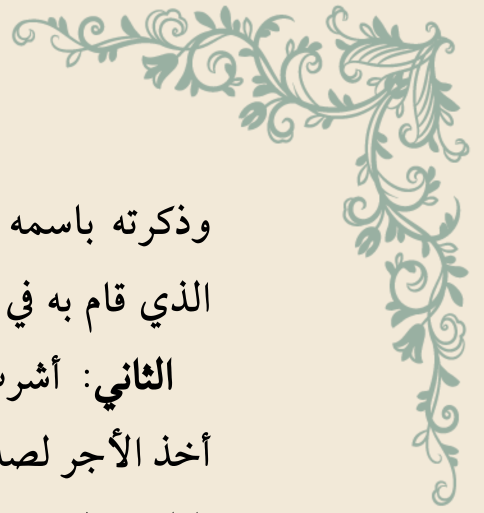
وقبل القراءة أقدم اعتذارا هامّاً:

لا أرغب في صريح الاعتذار؛ لكن ثمة أمرٍ لا بد أن اعتذر بسببه، حيث قمت في طيات هذا الكتاب بالإشارة إلى قصص من مشاهداتي ومحيطي العلمي والاجتماعي ولم أسجل جميع ما شاهدت ولكن أشرت إلى بعض القصص التي كان لها وقع وأثر في طريق أهل العلم وشكلت العقبات أو إضاءات في سبيلهم وبعض هذه المشاهدات مما عُرف َ أهلها وأدرك بعض الأصدقاء أنه هو المقصود، لكن صدقاً ما أردت التعريض ولكن اجتهدت في تصوير الوقائع.

ومع أن بعض العبارات المذكورة في الكتاب مدحٌ إلا أني لم أصرِّح بذكر أسماء أصحابها، وذلك لأسباب أتحفظ على ذِكرها.

وقد أشرت إلى اسمين فقط من المعاصرين في هذا الكتاب، وهما:

الأول: الطيب الإنساني صاحب الخلق والأدب، الذي كان يشعر مع الفقراء الطبيب (رضوان السعد) رحمه الله،

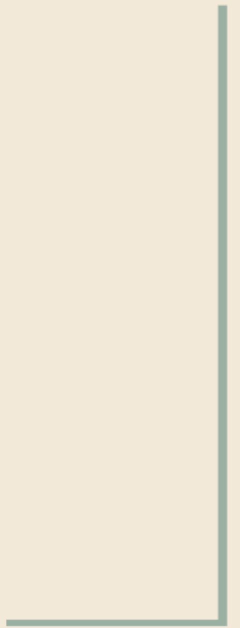


وذكرته باسمه تقديراً له وتخليداً للجهد الطيب المبارك الذي قام به في مسيرته العلمية والعملية.

الثاني: أشرت في حديثي عن العطاء والبذل وعدم أخذ الأجر لصديقٍ شابٍ قدم إسهامات كثيرة في المجالات الطبية وفي علاج مرضى التوحد صديقي الغالي (فاخر الدين عوده). وأرجو الله التوفيق والسداد.





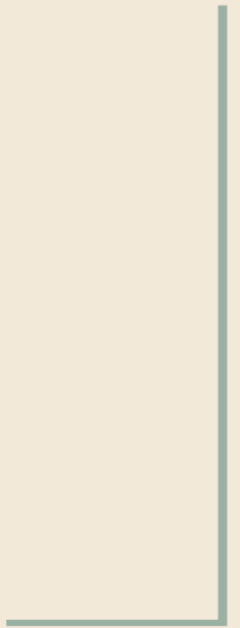





العذابات





أولا: العذابات

مدخل للحديث عن معاناة العلماء

لا شك أن عذابات العلماء من أكثر الأمور التي تشغلهم عن العلم؛ فهناك صعوبات وعقبات تقف في طريقهم، تعيق هذه العقبات سبيل البحث وطريقه وتعرقل عملية النجاح في كثير من الحالات وليس الفقر وحده هو العائق الوحيد وليست الحاجة إلى أدوات البحث هي العقبة الوحيدة...

مع أن الحاجة والفقر تعد من أهم العراقيل التي تثبط الباحث عن بحثه.

عندما يقوم عالم بإجراء تجربه مرة تلو المرة وتأخذ هذه التجربة من وقته الكثير ومن جهده وطاقته، وتستنفد قواه ومداركه.

ألا تعتبر هذه معاناة؟!

وعندما يمتنع العالم عن مجالسة أهله ويعتزل أبناءه وزوجته.

ألا تعتبر هذه معاناة؟!

عندما يعتزل العالم الناس ولا يجالس الأصحاب والأصدقاء.

ألا تعتبر هذه معاناة؟!

عندما يقف العالم لإقناع الناس باختراعه وابتكاره.

ألا تعتبر هذه معاناة؟!

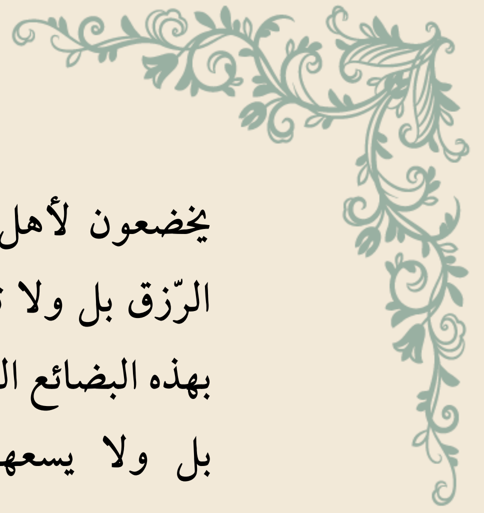
الكُتَّاب، والمؤلفون، الباحثون، الدارسون، المستكشفون المخترعون، المصلحون، والمرشدون...، هؤلاء وأمثالهم يعانون أشد المعاناة وكل له معاناته التي تؤرقه وتطرح العوائق والأشواك في طريقه.

والحاصل أن هناك عقبات كثيره تقف في طريق العلم والعلماء بعضها ظاهر وبعضها غير ظاهر، وفي هذا القسم من الكتاب تسليط الضوء على مجموعة من العذابات، وبالله التوفيق.

كلام نفيس لابن خلدون

يقول ابن خلدون:

"الفصل السابع: في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب والسّبب لذلك أنّ الكسب كما قدّمناه قيمة الأعمال وأنّها متفاوتة بحسب الحاجة إليها. فإذا كانت الأعمال ضروريّة في العمران عامّة البلوى به كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشدّ. وأهل هذه الصّنائع الدّينيّة لا تضطرّ إليهم عامّة الخلق وإنّما يحتاج إلى ما عندهم الخواصّ ممّن أقبل على دينه. وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر. وإنّما يهتمّ بإقامة مراسمهم صاحب الدّولة بما ناله من النّظر في المصالح فيقسم لهم حظّا من الرّزق على نسبة الحاجة إليهم على النّحو الّذي قرّرناه. لا يساويهم بأهل الشّوكة ولا بأهل الصّنائع من حيث الدّين والمراسم الشّرعيّة لكنّه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصحّ في قسمهم إلّا القليل. وهم أيضا لشرف بضائعهم أعزّة على الخلق وعند نفوسهم فلا



يخضعون لأهل الجاه حتّى ينالوا منه حظّا يستدرّون به الرّزق بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشّغل بهذه البضائع الشّريفة المشتملة على إعمال الفكر والبدن. بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدّنيا لشرف بضائعهم فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب. ولقد باحثت بعض الفضلاء فأنكر ذلك عليّ فوقع بيدي أوراق مخرّقة من حسابات الدّواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدّخل والخرج وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمّة والمؤذّنين فوقفته عليه وعلم منه صحّة ما قلته ورجع إليه وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لا ربّ سواه" (مقدمة ابن خلدون، ١/ ٤٩٣).

وكلام ابن خلدون يتضمن أسراراً عديدة ملخصها على النحو الآتي:

- القائمون بأمور الدين لا تعظم ثروتهم في الغالب وهذا الأمر كان في عصر ابن خلدون وقبله وبعده.
- الأعمال الضرورية في العمران قيمتها أعظم وحاجة الناس إليها أشد، وكذلك تحسيناتها أكثر، ونتائجها أعلى.



- أهل الصنائع الدينية لا يضطر إليهم إلا في الفتاوى وحلِّ بعض النزاعات والتوجيه والإرشاد.
- يقع الاستغناء عن أهل الدين في الأكثر لأنهم لا يحتاج إليهم إلى في أوقات ومواقف محددة كما تقدم.
- توزع المرتبات من قبل أصحاب القرار في الدولة بحسب الحاجة إليهم، وأهل الدين ليسوا كغيرهم.
- عند المقارنة بين أصحاب الصنائع الهامّة وأهل الدين لا يتم مساواة حقيقيه كما يستحقون.
- أصحاب الدين وأهله يتمتعون أمام الخلق وأمام أنفسهم، ولا يخضعون لأهل الجاه.
- أهل الدين لا تتفرغ أوقاتهم لتقرب من أصحاب الجاه والسلطان ليأخذوا منهم المال.
- شرف البضاعة منع العلماء من التبذل لأصحاب الأموال.
- اعتزال أهل الدين ملذات الدنيا.
- لأجل هذه الأسباب المتقدمة كما يقول ابن خلدون لا تعظم ثروتهم.
- يعطي مثالاً تطبيقيا من واقع حياته، وهذا ما جرى عليه ابن خلدون في كتابه، والمثال من خلال النظر في

نفقات أهل الدين ومجرياتهم من الخزينة ليبرهن أن نفقاتهم أقل النفقات.

وفي كلام ابن خلدون دقه وعنايه فائقة منه بشؤون فئة شريفة من المجتمع يسلط الضوء على نفقاتهم ومجرياتهم.

وقبل هذا يقول ابن خلدون:

((**وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته**))

وهذه القاعدة التي بنى عليها ابن خلدون نظريته في كسب أهل الدين مقبول في المجتمعات ومطبق على أرض الواقع،

أما بخصوص القُضاة الذين شملهم ابن خلدون بكلامه فعندما احتاج الناس إلى القضاء وإنفاذ السلطة القانونية والتنفيذية ازدادت حاجتهم لأهل القضاء، وازدادت العناية بأمور القضاة.

الكفاية المالية

أرسل لي أحد الزملاء من ماليزيا بحثاً محكماً للمناقشة وإبداء الرأي، وعندما اطلعت على البحث وجدته بحثاً كتب بعناية فائقة واستهلك الجهود الكثيرة حتى برز بهذه الصورة.

وعندما كنت أقرأ في البحث تذكرت قصة حدثت مع الصديق الماليزي في عمان سنة (٢٠١٥ م) حيث كان صديقي لا يزال طالبا بالجامعة الأردنية وكان يأتي مع صديقين من أصدقائه يقرأون القرآن الكريم وكنت أتشرف بالجلوس معهم في بيتي.

بعد إكمال الدرس بدأ الزملاء يتحدثون مع بعضهم بلغتهم وكنت استمع ولا أفهم ما يريدون، فسألتهم ولم يجب منهم أحد. نظروا والحيرة تبدو أثارها على سلوكهم أقسمت بالله عليهم أن يخبروني....

فقال أحدهم نحن نريد العود إلى البيت وليس معنا إلا نصف دينار، وأجره الطريق من بيتك إلى منطقة (صويلح) خمسة وسبعون قرشاً لنا الثلاثة.

أنا أريد أن أسير من هنا إلى صويلح وهما سيركبان.

فقال الأصدقاء لا لا لا لا...

أنا أمشي أنا أمشي، ثم، وبدأت أصواتهم ترتفع حتى قلت: كفى

لن يسير منكم أحد.

وكان بعض أهل المسجد قد كلفني بتوزيع الصدقات فدخلت إلى بيت وأحضرت لهم أجرة الطريق وزيادة وقد كانت المسافة بين بيتي ومنطقة (صويلح في عمان) تزيد عن سبعة كيلو مترات.

مثل هذه الصورة تتكرر كثيراً مع طلاب العلم.

ولكن هل يسمع قرقرة بطونهم أحد!!!

وهل تكرمهم الطرقات بنثر الخيرات على جنباتها إذا ساروا وإذا مشوا!!!

صديق آخر من غانا كان يدرس اللغة العربية كان يحدثني عن صعوبة العلم والتعلم في بلادهم وفي قراهم النائية فالمدارس تحت الأشجار والكتابة في الألواح الخشبية وصعوبة وجود معلم وغير ذلك الكثير.

وما زلت احتفظ ضمن مقتنيا النفيسة بعلبة حبر أحضرها لي صديق آخر من غانا من بلادهم، وحكى لي قصه صناعه الحبر في بلادهم وعندما أمسكت ريشة الكتابة وجدت الحبر ثقيلاً نوعاً ما.

فقال: نسيت أن أقول لك أنه يوضع مع الحبر بعض السكر حتى يلتصق بالورق، وهذه القصة سنة (٢٠١٦م) وليست قبل مئة سنة من الآن.

ففي كل زمان ومكان تجد الصعوبات المالية تُحيط العالم وطالب العلم وكأن العلم يحب الفقر ولا ينفك عنه ولا يترك أهله.

وأستذكر مقولة فضيلة الدكتور عبد الملك السعدي حين كان يتحدث عن الصفات اللازمة وغير اللازمة فقال: الطول أو القصر من الصفات اللازمة...، أما الفقر والغنى فهما صفتان عارضتان...، أما أهل العلم فالفقر لازم لا يُفارقهم.

ومع إقرار هذ الحقيقة إلا أن بعض طلاب العلم يضعف ولا يصبر، وقد رأينا من الطلاب من انتكس وتغيرت حاله بعد معاناته الشديدة مع طلب العلم وعدم تحقيق الكفاية المالية فبعضهم يفصل من الجامعة والبعض يتنحى عن طريق العلم ويتجه إلى العمل ويترك العلم.

وليست مسألة ترك العلم والتوجه إلى العمل مسألة قلب الحروف فقط بل هي مسألة فكريه تترك في القلب حسرة وألماً لا يعلمه إلا الله.

تعرفت على شاب منذ حوالي عشرين سنه كان يعمل في مكتبة من مكتبات عمان وهذا الشاب ما ترك كتاباً في المكتبة إلا واطلع عليه وعرف تاريخه وطبعاته وتاريخ مؤلفه....، أحاط بالكتب وعشقها عشقاً لا يوصف كنت أجلس معه في المكتبة ساعات طوال لا نمل الحديث عن الكتب.

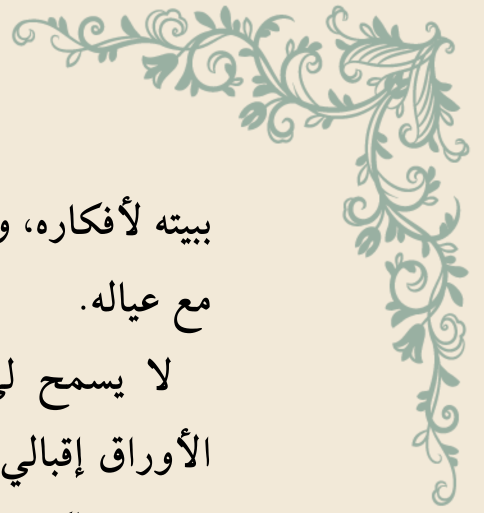
ولم يحالفه الحظ في الدراسة، لكنه أبدع وكوَّن ثقافة واسعة حول الكتب.

لكن كما قلنا سابقاً: (العلم قرين الفقر والحاجة) قلَّ بيع الكتب وتناقضت أعداد القُرَّاء، قلَّ البيع وأصبح الأجر المتحصل من البيع زهيدا، وما كان منه إلا أن ترك العمل وهجر الكتب وانتقل إلى عمل آخر، وقبل أيام من كتابه هذه الكلمات اتصلت مع صديقي وكان من حديثه:

آه.... أنا أحب الكتب

فلا حول ولا قوة إلا بالله

الحديث ذو شجون، والكلام عن الكفاية المالية للعالم لا تسعه الأوراق ولا تحده طيات الكتب وأجلادها لكن تبقى المأساة قائمة... وكم من عالم تسمُن أوراقه ولا يتسع



ببيته لأفكاره، واختراعاته وابتكاراته ولكن لا يشبع الخبز مع عياله.

لا يسمح لي القلم بالتعبير أكثر وأكثر، ولا تقبل الأوراق إقبالي على هتك ستور العلماء والفضلاء وقد سمعت الكثير وشاهدت الكثير من الحوادث من معاناة أهل العلم والفضل، واستحي كتابه الكثير من آلامهم ومعاناتهم مع المرض ومعاناتهم مع الفقر قصص كثيره أختم بواحدة منها تتجلى فيها الألطاف والعناية الربانية.

بعد الأحداث السورية والفتنة الكبيرة التي شهدناها منذ أعوام هاجر الملايين من سوريا إلى بلاد الجوار وكان حظ المملكة الأردنية الهاشمية ما يزيد على المليون لاجئ، وكل لاجئ منهم له تاريخه الذي يحكيه بألم ومرارة -نسأل الله العون واللطف- ومن بين هؤلاء المهاجرين عالم جليل القدر عالي المقام خطيب من الخُطباء ومُدرِّسٌ وكاتبٌ ومؤلفٌ ومصلحٌ.

يدخل الأردن فيصاب بمرض ويحتاج إلى عمليه جراحية، والعملية الجراحية تحتاج المال وتكلف ما يقارب ألف دينار أردني.

وأين هي الألف دينار؟!



وهل يملك مهاجر فارٌّ من الحرب إلا ثوبه وبعض حاجياته الهامَّة وحاجيات أهله الضرورية!!

تضيق الدنيا على الشيخ الجليل يدخل المشفى يُطلب منه المال

فيجيب بألم: لا يوجد معي شيء.

ويُجاب بلطف وعنف: عذراً.

ويدخل مشفى أخر ونفس الإجابة. فتضيق الدنيا بأسرها عليه.

لكن؛

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالحوادث كلهن أمان

وبينما عالِمُنا الجليل يقاسي المرض ويعاني الألم أخبره أحد الفضلاء أن طبيباً في إحدى العيادات يُقدِّم مساعدات كثيرة للمرضى.

فيُسرع إليه ويتقدم الشيخ المريض بكل خجل وقبل معاينة حالته يقرأ الطبيب اسم المريض فينظر إليه ويبتسم ثم ينظر في الورقة مرةً أخرى وينظر للشيخ المريض....

ثم ينطق الطبيب بعد توالي بسمات كثيرات

كيف حال والدك؟!

أنا الطبيب فلان.... أحد تلاميذ والدك في المسجد علمنا والدك وربانا وتعب في تزكية نفوسنا وتهذيبها.... وأخذ الطبيب يتحدث عن فضائل الوالد والشيخ ذهبت آلام نفسه وبقيت آلام جسده.... ويُجري له الطبيب العملية بالمجان إكراماً لله وحفظاً لحق الوالد المربي.

وأثناء المراجعة النهائية لمخطوط الكتاب وجدت فسحة في الورق فأضفت قصة صديق من أذكى الناس عرفته منذ ما يقرب من عشرين عاما، زارني في البيت وعرضت عليه مخطوط هذا الكتاب فقرأ كثيرا منه وأخذ يُحدثني عن بعض عذاباته، وذكر لي حالته وقت دخول الجامعة، وأنه خرج من قرية من قرى محافظة إربد شمالي الأردن خرج منها إلى العاصمة عمان، وبدأ دراسته الجامعية وكان متميزا بين أقرانه، لك ثيابه كانت قديمة وبالية.

يرقب حركاته أستاذ فاضل في الجامعة، ثم يصطحبه ويهديه مالا لشراء ثياب جديدة.

ثم يمرض الطالب النجيب فيأخذه الأستاذ الفاضل إلى مشفى من أعرق المشافي ويعالجه فيه، ويتم إدخال الطالب مدة أسبوع في المشفى، ويدفع الأستاذ الفاضل جميع التكاليف المالية للمشفى.

حياة ملؤها الألم لكن العناية والرِّعاية الرَّبانية تحيطها من كل جانب.

الصراع بين الفكر والفقر

يكابد الإنسان مشاق الحياة منذ عاش على وجه الأرض ولا تزال الأحافير والقبور والحضارات المحطمة شاهدة على أن الأنسان عاش على وجه الأرض شقياً منهكاً متعباً.

وهذه المكابدة ساهمت مساهمة كبيرة في نشوء الحضارات ورقيها وارتقائها، فالناتج الإنساني اليوم سليل الحضارات السابقة، تطوراتنا وتقدمنا في شتى صنوف الحياة ما هو إلا تطورات للأفكار وتسلسل الإعمار.

يخلص إنسان إلى فكرة ما، يعيش وتعيش الفكرة معه طيلة حياته، وهذه الفكرة تتطور وتنمو ولكن ليس في نفس الميدان، وربما في بيئة أو زمان أو وقت آخر.

وليس لنا أن نسأل عن سبب هذه التطور لأن عقول البشر مستودعات خفيات أودع الله فيها من الأسرار والخفايا ما لا يستطيع بشر إدراكه أو فهمه، وليس لنا إلا التسليم أن العقل معجزه أودعت في أجساد البشر تحفزهم وتحثهم على فعل ما تحتاجه البيئة والمجتمعات، ثم نسلم أن العقل البشري نتاجه يصب في وعاء واحد.

ومعنى أن نتاج العقل يصب في وعاء واحد أن كل البشر يخدمون بعضهم البعض، فأنا في جوف الليل أكتب، ومخترع الكهرباء يخدمني وصانع الورق يقدم لي خدماته، وصانع الأقلام يجود بأفضاله وهكذا...

وكل هذا النتاج الصناعي والتطور الذي تشهده اليوم هو نتاج العقل البشري العظيم.

وقد تصفحت كثيرا من أوراق المخترعين والصانعين فوجدت الدافع إلى الاختراع أو الصناعة او التطوير يتعدد من عصر لعصر ومن مكان لآخر، وعندما تقرأ في الصناعات والاختراعات والكاتبين عنها نجد الدوافع ظاهرة من كل صنع أو اختراع.

وهناك دافع لا يؤبه له ولا ينظر إليه وهو الفقر.

والسؤال المحير كيف يكون الفقر نوعاً من أنواع الدوافع إلى العمل وهو ضرب من ضروب الفشل وداعي من دواعي الانكماش الحضاري؟!؟!

لابد لنا قبل الإجابة من النظر إلى كثير من الاختراعات والاكتشافات فقد باتت اليوم أكثرها بارزة للعيان؛ أقصد أن كيفية نشأتها وطرق تصنيفها وكيفية عملها تظهر غالبا للجميع، ولم تعد حكراً على أحد.

إن الناظر البصير يدرك أن الظروف، وشخص المبدع لهما أكبر نصيب في الإنجاز.

ومن قرأ عن أحوال المخترعين أو المبدعين عرف أن أكثر هؤلاء المبدعين من الأشقياء الذين لم تأبه لهم الحياة بنصيب وافر من لذة العيش، لسنا في مقام الحصر ولكن إلحاح يحفز القارئ البحث صدق هذه الفكرة.

قبل أيام شاهدت رجلاً يصنع موقداً صغيراً يعمل على مادة الكحول المواد سهلة وبسيطة (قطن، وعاء زجاجي، أنبوب معدني، كحول) الطريقة سهله يستطيع أي طفل أن يصنع مثل هذا الموقد لكن ما هي الظروف المحيطة بهذا المنتج البسيط؟؟

المخترع: شاب يحمل الجنسية العربية السورية.

ظروف المخترع، حصار وتشريد وقتل ولجوء وحرب تمتد إلى سنوات.......

في مثل هذه الظروف وفي مثل هذه الأوقات تظهر وتبرز للعيان قدرة الإنسان وإمكانات عقله فليس له مجال إلا أن يفكر في ضروريات نفسه وأهله ومحيطه.

قسوة الحياة تعني الشيء الكثير لبعض الناس، والهم والغم يصنع منه أحلى الأيام وأجمل اللحظات.

مرض العلماء

زرت شيخاً فاضلاً من أهل اللغة والأدب متخصص في تدريس اللغة العربية بنحوها وصرفها وآدابها وعلومها، يُدرس الشيخ ألفية ابن مالك في النحو في بيته يحضر الطلاب إليه فيقوم بتدريسيهم بالمجَّان، كما يُدرِّس الشيخ الفاضل علوم القراءات القرآنية لطالبين أو ثلاثة.

ولما زُرت الشيخ الفاضل تفاجأت بسوء حاله وقلَّة حيلته أمام الفقر والمرض، فهو لا يكاد يَقوى على الكلام لشده السُّعال وبالكاد يتلفظ أنفاسه لشعوره بالتعب والإرهاق جرَّاء ضعفٍ في عضلة القلب، ومع هذا يُدرِّس ويُعلم ويكتب ويؤلف.

ومما زاد آلام الشيخ أن البيت الذي قام باستئجاره على الدور الرابع والشيخ إن أخطأ ونزل أو نزل لحاجة ماسَّه يحتاج وقتاً طويلاً للصعود ودخول البيت.

يضع الشيخ مدفأة بجانبه وحتى تفي المدفئة بالغرض لأنها صغيرةٌ جداً ولا تقوم بتدفئة جميع الغرفة قام الشيخ بوضع ستائر، حتى صار المحيط من حوله مترين في مترين تقريباً، وبذلك تستطيع المدفئة أن تدفئ ما بين الستائر المرقعة.

ثم إن الشيخ في وقت التأليف لا يستخدم المدفأة بل ينام على سريره ويخرج يده فقط من تحت الأغطية لتمسك بفأرة جهاز الحاسب، ويبدأ عمله بيد واحده هي التي تطبع، وهي التي تنسق ونضبط.

وحاصل ما تقدم أن الشيخ أنهكه المرض وفَتك به الفقر، ولكن لم ينقطع عن التدريس والتعليم ولم يهجر التأليف والكتابة؟!

كل هذه الظروف الصعبة التي تحيط بالمؤلف أو العالم لا تثنيه عن عمله الدؤوب ولا تثبطه ليجلس وحيداً دون أن يُعلم ويُربي.

التقيت بعالم جليل القدر ما ترك فناً من فنون الشرع واللغة والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع إلا تكلم فيه وألَّف فيه، لكنه مبتلى بالمرض الشديد، وكان كلما أحس بشدة المرض وقسوته تزداد همته ويزداد إنتاجه وتآليفه، وفي كل ذلك يقول:

"عندي رسالة أريد أن أوصلها، للناس قبل فوات الأوان"

فكان المرض دافعه الأقوى للعلم.

مثل هذه الأمثلة العظيمة تُعلمنا أن زمان العلم والعلماء لم ينته بعد ولم تنقض أيامه فالعلم باق وأهله باقون صامدون.

قصة أخرى في هذا الباب هي قصة صديق من أقرب الناس إلى قلبي علمت أنه عزم السفر خارج البلاد وعلمت أنه وقَّع عقدا جديدا بمرتب يفوق مرتبه فيبلده بعشرة أضعاف تقريبا، شاب يحمل شهادة الدكتوراه ينظر إلى حياة جديدة، سألته عن أخباره ومتى سيكون موعد سفره، فقال لي كلاما آلم قلبي.

طُلب من الدكتور عمل بعض الفحوصات الطبية، فكانت النتائج غير متوقعة، قالت مندوبة سفارة الدولة المستقبلة، نعتذر منك دكتور فأنت مصاب بمرض التهاب الكبد الوبائي.

والقصص في هذا الباب كثيرة انتقيت منها شيئا يسيرا، ولا يزال عندي منها الكثير.

عذابات الأهل ومعاناتهم

صعوبة العيش وظروفه أجبرت والدتي الخروج من المدرسة ولم تُكمل دراستها، وكم أحبت أن تتعلم الكتابة والقراءة، لكنها ولله الحمد تتمتع بذكاء ثاقب وحافظة غريبة لم أر مثلها في حياتي...

ومما يُبرهن لي على هذا أنها في الصفوف الأولى من دراستي أنا وإخوتي كانت تقوم بتدريسنا جميعاً، فالرياضيات ماهرةً في تدريسه، واللغة العربية والكتابة وتركيب الأحرف والنسخ والإملاء والكتابة، كانت تعقد لنا الاختبارات في الإملاء وفي الحساب والجمع والطرح وتعلمنا الكثير من الدروس وتعلقنا بآمال المستقبل الزاهر.

وبعد ثلاثين سنه ترى الأم الحنون ثمرات تدريسها وتعليمها الآمال والنظرات المستقبلية الزاهرة، ترى الأم ثمرات تدريسها بالشهادات الجامعة والدراسات العليا التي تحيطها من كل جانب من أبنائها ولله الحمد.

تعرفت على طالب من (غانا) يدرس الماجستير في اللغة العربية في جامعه العلوم الإسلامية العالمية في عمان يحفظ كتاب الله غيباً ويحفظ ألفيه ابن مالك -والكثير من

الأفارقة يُتقنون حفظ الألفية ويُحبون اللغة العربية- سألته كيف تُنفق على دراستك؟

فأجاب أن له خالا يعمل، وخاله نذر كل أمواله لابن أخته حتى يتعلم ويحمل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة عربية، وخاله ليس من أصحاب الأموال حتى يتصدق، بل هو يُقَتِّرُ على نفسه، وقد تأخر عن الزواج حتى يُكمل ابن أخته الدراسة.

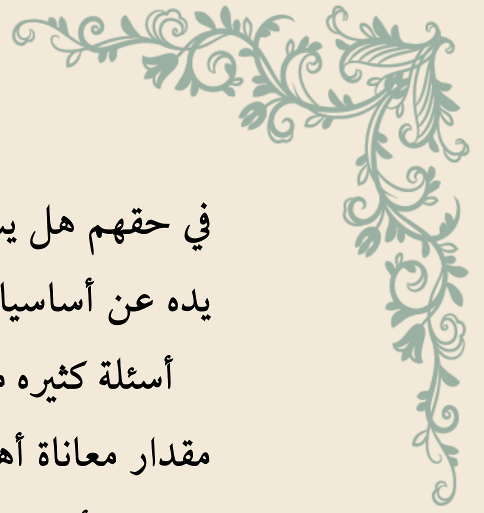
وعندما سمعت هذه القصة أدركت مقولة شيخ فاضل من مشايخنا الأكارم:

(كم من صاحب سمعة وظهور ببركة مستور).

عذابات الأهل كثيرة جداً لا نستطيع حصرها... لكن من رزق أبناءً، وجلس معهم يُعلمهم ويربيهم ويحثهم على طلب العلم والمعارف عرف ما أقول.

يعاني الأهل مع طالب العلم منذ المنشأ والبداية إلى طريق العلم فمن الأهل من يوفق لرؤية أبنائه ومشاهدة ثمرات العلم.

وبعد التمكين في العلم ربما يكون للعالم زوجة وأبناء فما هي حالهم وكيف يعيشون مع العالم هل يقصِّر العالم



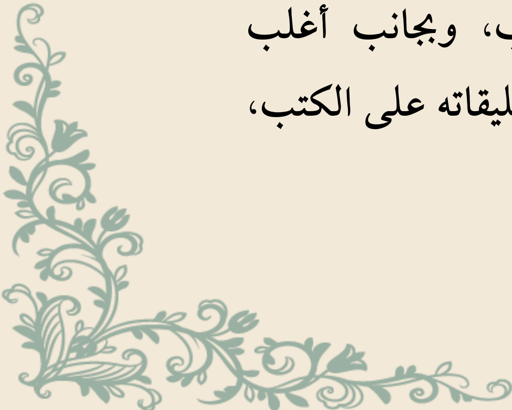
في حقهم هل يستطيع الإنفاق عليهم حق النفقة أم تقصر يده عن أساسيات العيش؟

أسئلة كثيره مثل هذه يجب أن نقف عندها قليلاً لنعرف مقدار معاناة أهل العلم وأهليهم.

دمعة أم ما زلت أذكرها منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً؛ طالب سافر للدراسة وكلما ذُكر اسمه أو مرَّت أمُّه بخاطر ذِكره بكت، أمضت أربع سنوات كادت عيناها تبيض من الحزن.

وبعد التخرج وفي حفل التخرج خصوصا بكت الأم كثيراً...، فسئلت عن سبب بكائها وقد تخرَّج ابنها فما استطاعت أن تجيب، فهذه حسرات أم لا يعلمها إلا من كابد مثل ألمها.

عالم جليل من علمائنا الأفاضل يسكن مدينة من المدن الأردنية لا يستطيع أن يقول لزائره تفضل بيته مكون من غرفتين وليس يملكه بل هو بيت مستأجر سمح له صاحب البيت أن يستغل جزءاً من درج البناية ليضع بعض كتبه فيها، يضيق بيته بالكتب، وبجانب أغلب الكتب أوراق أو دفاتر هي مجموعة تعليقاته على الكتب،



أبناؤه وزوجته يشتكون كثرة الكتب والأوراق وضيق البيت.

وقد شهدت عدداً من أهل العلم إذا اشترى كتاباً لا يستطيع أن يدخله إلى بيته إلا بعد أن ينام أهله، أو يتحايل ويضع الكتب عند أحد زملائه ثم يدعوه إلى البيت ويأتي ومعه الكتاب فيدعي أن الكتاب إهداء من صديقه والسبب في ذلك أنه يخشى غضب زوجه أو سخط الأم أو أحد الأهل لأن الجميع يدعي أن شراء الكتب أمر زائد عن الحاجة وهناك أشياء أهم.

وفعلا ربما يبتلى الإنسان بحب الكتب فينسى أهله ونفسه.

عذابات الأهل متعددة ولكن على العالم أن يُصبِّر أهله ويهبهم الكثير من وقته، ويشرح لهم فوائد العلم ومنفعته، وإن ناله خير من خيرات العلم المادية عليه أن لا ينسى أهله وأن يُفيض عليهم من الخير.

مرض الأهل

ومن معاناة أهل العلم ابتلاء العالم بمرض أحد أفراد أسرته؛ فيُجلسه هذا الأمر بعيدا عن ساحات العلم والمعرفة، وهذا الأمر شائع بين أهل العلم، فمنهم من احتبس سنوات عن العلم لقيامه بشؤون والده أو والدته أو زوجه أو أحد أبنائه.

افتقدت صديقا مدة من الزمان تواصلت معه فأخبرني قصة مؤلمة عن مرض زوجته، وأنه يقوم على خدمتها منذ مدة.

طبيب حاذق من رواد المسجد التقيت به بعد غياب طال أكثر من ستة أشهر، فأخبرني أنه انقطع عن العمل وعن الأقارب والأصحاب حتى عن المسجد بسبب مرض زوجته الي ابتليت بالمرض.

وقد سمعت أن أحد علماء اللغة والأدب قد لازم أحد أفراد أسرته في فترة مرضه، وكتب بعض القصائد وهو في المشفى، اطلعت على بعضها فوجدتها من أصدق وأحسن الأشعار.

هدر الجهود فيما لا طائل فيه

أكثر الكتب التاريخية مبيعا تلك الكتب التي تتكلم عن شخصيات استثنائية مميزة لها الأثر في الإصلاح والتجديد، ومن هذه الشخصيات المميزة شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فالكتب المؤلفة عن عمر بن الخطاب أكثر الكتب مبيعاً كتب السير والتراجم ولا نُنكرر أن بعض المرويات نالتها أيدي الوضاعين والمبالغين في فضائل عمر رضي الله عنه.

قبل حوالي عام اطَّلعت على جهد قام به أحد العلماء الفضلاء استمر جهده مدة أشهر للكتابة حول موضوع يرى أنه هام وضروري وهذا الأمر هو جمع الأحاديث المروية في فضائل عمر ونقدها وإبطال أكثرها، وقد اطلعت على جهده فوجدته جهدا عظيما يحتاج إلى ساعات طوال من العمل.

والسؤال هنا موجه للعالم الجليل:

سيدي الفاضل: هل انتهت مشكلات الأمّه ولم تبق لك إلا مشكلة تصحيح المرويات في فضائل عمر؟

سيدي الفاضل: أنت تقيم في مجتمع يعجُّ بالفتن وانا أعرف محيطه وحالته الاجتماعية...، ألا تعرضت لعلاج الفتن من حولك خير لك مما أجهدت نفسك في تحصيله.

حقا إنه جهد في أشياء لا حاجة لها ولا فائدة منها.

زارني في بيتي صديق عزيز من طلاب العلم الفضلاء نظر إلى مكتبتي -وأنا والحمد لله أممتلك مكتبه كبيره- كرَّر النظر إلى الكتب مراراً....

ثم سألني بخجل واستحياء وقال:

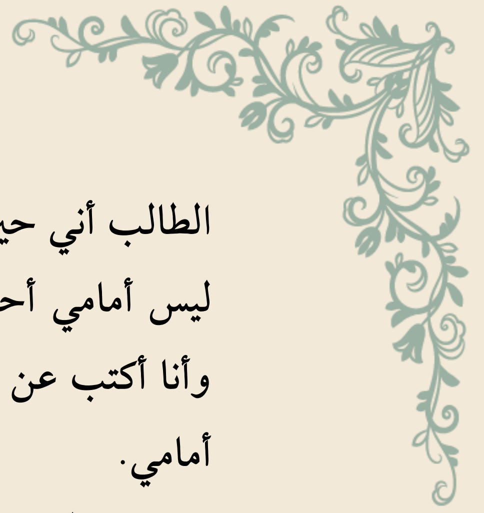
شيخي العزيز: أنا أعتقد أن الكثير من الكلام مكرَّر بين الكتب ولا داعي لاقتناء بعضها.

ثم وقفت بجانب المكتبة وقلت لا نُنكر أن شخصية الكاتب تظهر في كتابه، وأن كل كاتب يحاول الإضافة في السياق أو الأسلوب أو النتائج أو غير ذلك.

لكن...

صدقت فعلاً هناك كتب مكررة، وإن لم تكن مكرره لكنك تجد كثيراً من الكتب ما يزيد على ٥٠٪ من مادة الكتاب مكرر.

فعجبت من معرفة هذا الطالب النجيب مع أنه لا يزال في بداية طريقه العلمي، ومن غريب ما حدث مع هذا



الطالب أني حين كنت أكتب هذه السطور، كنت وحدي ليس أمامي أحد وفي مكان بعيد عن مقام الطالب لكن وأنا أكتب عن فكرته التي أفادني طرحه وإذ بالطالب يمر أمامي.

وبعد طرح هذه الفكرة من الطالب عهدت إلى المكتبة وأخذت وحسب خبرتي في الكتب أسحب الكتب المكررة في مضمونها أسحبها إلى الخارج قليلاً بين الكتب حتى وصلت إلى نتيجة أن أغلب الكتب مكرر ليس في العنوان بل في المضمون.

وعندما كنا نتشرف بقراءة كتب الفقه في مجالس الإسناد كان يُقال لنا: إن الكتاب الذي تزداد شروحه وتكثر الحواشي عليه هو كتاب هام جدا، ومن أجلِّ كتب التراث، ثم تضرب لنا الأمثلة ببعض كتب الفقه مثلا مثل مختصر القُدوري في فقه الحنفي، والمنهاج للنووي في الفقه الشافعي وكلاهما شُرح عشرات المرَّات.

وهذه الشروحات الكثيرة ضربٌ من الحشو الزائد وبذل الجهد فيما أُلِّف وكتب فيه، وتكرار لنفس المعلومة بعبارة أخرى جديدة ربما تحمل نوعا من الجدَّة.



ومن النتائج التي ظهرت لي أن الكثير من المؤلفين الذين سلكوا منهج التكرار في التأليف أرادوا تأصيل تحصيلهم؛ بمعنى أنهم كتبوا جزءاً من مؤلفاتهم وقت طلبهم للعلم أو بعد استواء علومهم وأرادوا بذلك أن يوثقوا علومهم التي حفظوها.

وليس هذا وحسب بل إنك تجد اليوم الرسائل العملية والأبحاث المحكَّمة تعجُّ بها الجامعات والكليات وعند النظر في أكثرها تجد نفسك تائها لكثرة التكرار فيها.

أين هي نتائج الجهود التي تستهلك سنوات من حياه كل باحث، ما هي النتيجة وما هي الفائدة من هذه الدراسات...؟!

يجب أن نربط هذه الأعمال بقدرتها على إثبات مكانتها ومنزلتها أمام الواقع وخلاف ذلك لا نظر فيه.

صراع المنهج

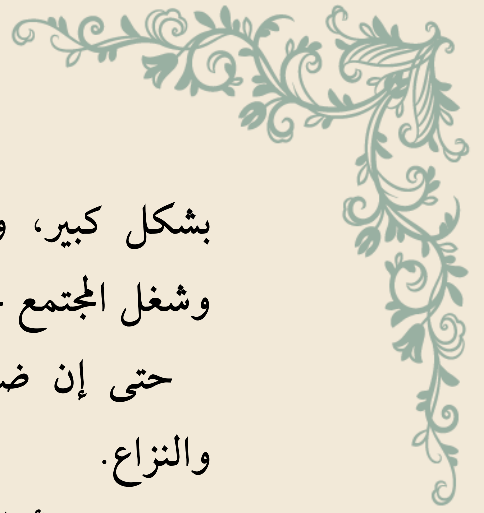
أكتفي في هذا الباب بذكر طبيعة صراع المنهج والتعريف به وإحالة القارئ الكريم إلى كتابنا الموسوم (صراع المنهج).

الناظر إلى العلم والعلماء يجد أن الكثير من المسائل التي تطرح على الساحة العلمية مسائل تتعلق بالمدارس والمذاهب والاتجاهات الفكرية، وبعض المؤسسات الفكرية تعقد المناظرات وتتوجه إلى الإعلام لنشرها لتبرز للعالم إنتاجها وفكرها فتناقش الخصوم وتحاول إقناع المجتمع أنها صواب، بل عين الصواب.

وعند تدقيق النظر في كثير من المسائل الدائرة هذا المدار تجد أن الصراع لا يعدوا أن يكون اختلافاً على مصطلح أو نقداً لمنهج الخصم في البحث؛ فالفريق الأول منهجه كذا والثاني له منهج مختلف تماماً، والنقاش يتركز على مقدمات باطله ويخرج بنتائج غير مُرضية.

ولا شك أن مثل هذا الصراع له نتائج ونتائجه سلبية على العلم وعلى أهله.

نتج عن صراعات المنهج فُرقةٌ واضحة في المجتمع ونشأ عن صراعات المنهج هدرٌ للجهود واستنفادٌ للطاقات



بشكل كبير، ونتج عن صراعات المنهج تأخر الفكر وشغل المجتمع بخلافات لا طائل منها.

حتى إن ضبط مفهوم المنهج لم يسلم من الصراع والنزاع.

كم كنت أنظر بعين الغبطة إلى صراعات بعض العلماء في المجالات العلمية في الطب والهندسة والرياضيات... وغيرها، في غالبها نتاجها يُبنى على مشاهدة النتائج الواضحة للعيان، أما صراعات العلوم الإنسانية في الكثير منها لا تجد لها حلاً أصلاً، وبعض أسئلتها حائرة لا يملك لأحد البت فيها.



آفة العلم

تعرض الشاعر الأردني غازي الجمل لحادث سير ودخل المشفى أياماً، وفقد ذاكرته على إثر الحادث، زاره بعض أصدقائه وذكروه بقصيده له من أجمل القصائد مطلعها:

قف شامخاً مثل المآذن طولا

وابعث رصاصك وابلاً سجيلاً

ويبدأ الأصدقاء يذكرون كلمات من القصيدة والشاعر المسكين فاقد للذاكرة يتذكر بعض الكلمات ويكمل بعض أبيات القصيدة، حتى وصل الشاعر إلى البيت الآتي:

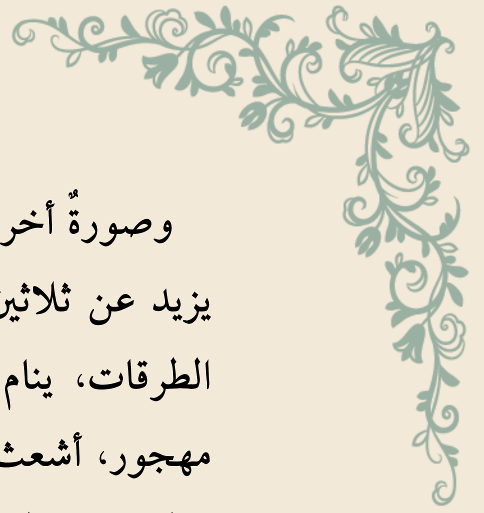
نحن الذين إذا ولدنا بكرة

كنا على ظهر الخيول

وهنا يتذكر الشاعر غازي الجمل كل هذا البيت ويبكي....

ولا أبالغ إن قلت أني قد شاهدت هذا المقطع ما يزيد على مئة مرة.

صورة الشاعر وهو يبكي ويكرر البيت الأخير لا تغيب عن مخيلتي أبداً...



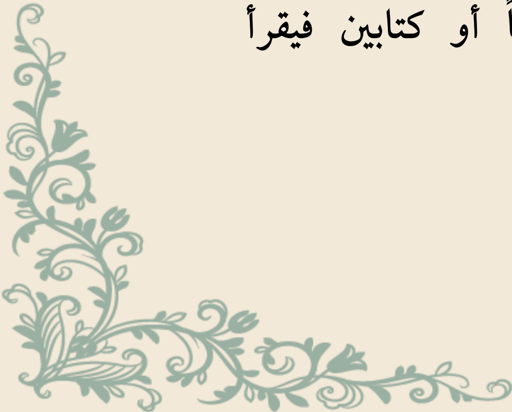
وصورةٌ أخرى لا تغيب عن مخيلتي أبداً أذكرها منذ ما يزيد عن ثلاثين عاماً، صورة رجل كبير السن يسير في الطرقات، ينام تحت الأشجار ويأوي في الشتاء لبيت مهجور، أشعث الشعر، يلبس من الثياب الممزق والمرقع والمتسخ، ينظر في وجوه الناس ولا يكلم أحد، يتبعه الصبيان ثم إذا نظر هاب منظرُه كل الصغار.

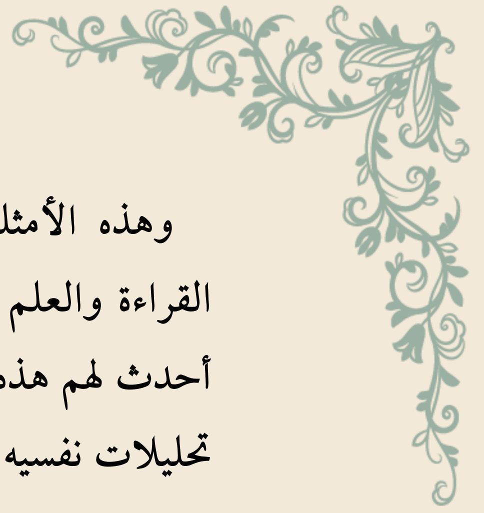
سألت والدي -رحمه الله - من هذا؟

فقال الوالد -رحمه الله-: هذا عالم من علماء الأمَّه وأعيانها، أمضى حياته يقرأ ويقرأ وكان خطيباً ومدرساً في أكبر المساجد يقول الناس أنه جُنَّ بسبب كثرة علمه ولكثرة ما قرأ.

كنت أخاف منه قبل هذا البيان ثم صرت أنظر إليه كثيراً، أحدِّق في عينه فيرتد إليَّ نظري حاملا أعذب الدموع وأصدقها.

وفي وسط عمان كنا نشاهد رجلاً أشعث الشعر حالته رثه يبيت على جنبات الطرقات لكن لا يفارقه ويدخل إلى المكتبات فيعطيه أصحابها كتاباً أو كتابين فيقرأ ويقرأ.........





وهذه الأمثلة هي أمثله لعلماء فضلا داوموا على القراءة والعلم ثم أصيبوا بالجنون ولا ندري هل العلم أحدث لهم هذه العاهات أم أمور أخرى، الأمر يحتاج إلى تحليلات نفسيه ودراسات على مثل هذه الحالات.

وقد شاهدت بعض طلاب العلم كان إذا نسي معلومة بدأ بضرب رأسه بشدةٍ وقسوة، وبعضهم كان يبكي لنسيان بعض الأمور الهامة من علومه ومعارفه.

النسيان آفة من الآفات التي تفتك بالعلوم والعلماء، وعلى العالم توثيق علومه ومعارفه وتقيدها بالكتابة، ونشرها بين الناس فالعلم يُحفظ بالتقيد والكتابة، ولا بد من نشره بين الناس للفائدة وحتى يُحفظ أيضا.



ضمور الفكر

في بعض البلاد البوح بالهمِّ مصيبة لا تُحمد عقباها، خوف الكاتب وإصابة فكره بالضمور كلما فكر بالكتابة عن أوضاعه وحالة مجتمعه.

هذا العذاب له عواقبه الوخيمة على المجتمع، حيث لا يُسجل الألم ولا تصل الصورة الصحيحة للواقع.

عاب كثير من القُرَّاء على بعض الكاتبين في العصور المتقدمة عدم الحديث عن الواقع، وعدم معالجة مجريات الحياة، لكن وبعد البحث والتقصي ودراسة حالة المجتمعات نجد أن ثمة ضمور أصاب الفكر بسبب التعنيف السياسي لكثير من الكُتَّاب، وبعضهم أراد السلامة وحاد عن الكتابة عن واقع الحياة خشية ما أصاب غيره من آلام.

عبودية قلم

كتب أحد الباحثين المأجورين:

عبودية قلم

هل سيحاكمني قلمي؟؟

هل ستحكم عليَّ أوراقي؟؟

أكتب الدرر أنثرها بين من لا يستحقها من أدعياء العلم...

أبيت ولا أبيت...

آوي إلى الفراش محزوناً... مهموماً

أأبيع فكري... وعقلي...

رب لا أرجو القصور ولا عظيم...

الدور اللهم أقض ديني...

واكفني هم عيش...

وحرر قلمي.

صاحب هذه الكلمات صديق عزيز من أكثر الناس جهدا وإنتاجا، لكن الفقر والعوز يحيطه من كل جانب، اضطر بعد أزيد من عشر سنوات للاستجابة إلى دعوات من مراكز الأبحاث التي تقوم بإعداد الرسائل العلمية والأبحاث والدراسات.

ولا أريد التعليق على هذا الكلام كثيرا كوني هزمت على الكتابة تحت هذا العنوان في كتاب مُستقل

(عبودية قلم)

رب عونك.

حب الوصول والارتقاء والشهرة

إن حُبَّ الوصول والارتقاء والبحث عن الشهرة يعتبر في نظر الكاتب مرضا عضالا يصيب بعض علمائنا وكتَّابنا مع احترامنا وإجلالنا لكل النتائج التي قدموها، لكن الدافع الشهرة والوصول.

وقد كان هذا الأمر سائداً عند الكثير من العلماء والكتَّاب والشعراء ولا يزال وله صوره الكثيرة.

أذكر عالماً أُجلُّه وأقدره لا أُحب التصريح باسمه احتراما وتقديراً لنتاجه العلمي الغزير، ابتلى هذا الفاضل بمرض حب الشهرة والوصول إلى أعلى المناصب، وبدأ يكتب ويمحص ويحقق ويجتهد في نشر ما يكتب، يرجو أن يكون هذا الكتاب أو ذاك هو الطريق إلى الشهرة والمال، لكن ومع قيمته كتبه العلمية إلا انه لم يكتب لها القبول بين أهل السلطة وصناع القرار، فمات لا يأبه به إلا أهل العلم، وبعد موته فاح صيت كتبه في جميع أنحاء العالم.

الشعور بالتقصير

صراع آخر شهدتُه وهو صراع غريب من نوعه حيث شهدت عالما جليل القدر يشعر بالتقصير المتواصل حيث يقدم على بعض الأخطاء، وهيمن صغار الخطايا، لكنها في نظره من كبائر الأمور، التي يشعر من خلالها بالتقصير الكبير، لذلك هو في معاناة دائمة وهموم تُشعره بالضرورة إلى فعل الخير، وإلى حد الوسوسة، وليس له ما يقدمه من فعل الخير إلا نشر العلم بين الناس، وهو يرجو بذلك الغفران.

الخصومات والمنازعات

ومن صور عذابات العلم صورة تكاد تقضي على صورة وهيبة العلماء في المجتمع، وهذه الصورة تتمثل في سعي العالم إبطال حجج خصمه من العلماء بصورة تسيء للعالم نفسه؛ فبعض العلماء وللأسف يخرج عن حدود اللياقة الأدبية حين يجادل أو حين يبرهن أو حيث يدلل على رأيه بالأدلة التي ربما تكون صحيحه وعلميه ودقيقه لكن الحامل لها والأسلوب الناقل لا يعبر عن أخلاق العلماء.

وهذه الآفة لم يسلم منها كبار العلماء وفضلاؤهم وفي شتى صنوف المعرفة، فالطبيب مثلا إذا ذُكر له طبيب آخر ماهر في فنِّه وعلمه شنَّع عليه وأساء له، وكذلك الفقيه والمحدث وغيرهم من العلماء.

وهذه النزاعات والصراعات في نظر المجتمع مثالب ومخازي تجلب العار لأهل العلم، فيجب توخي الحذر في الرد والتأني وعدم الاستعجال في مواجهة العلماء وآرائهم.

ومن عجيب ما قرأنا أن تكون مقدمات الكتب المحققة، والكتب المؤلفة في كثير من المجالات ساحات تدار فيها

الصراعات التي تثير الفتنة على الساحة العلمية ولم تسلم المجالات الدينية من هذه الأمور أيضا، فقام مجموعة من الكتاب بالإساءة إلى صورة الدين وسمعته من أجل الانتصار للنفس لا للحق.

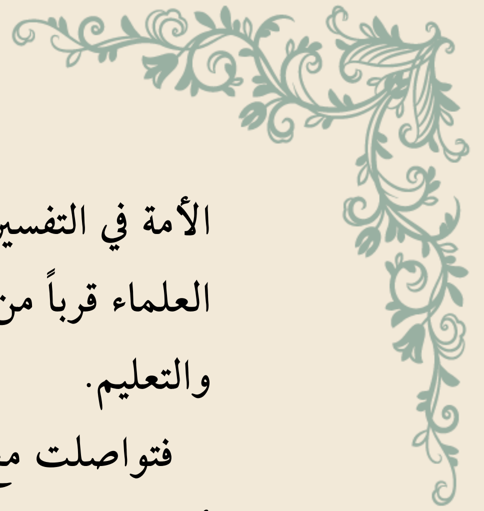
وعلى كل الأحوال لم يكن هذا الخصام إلا سمعةً غير طيبة وأثر غير سليم.

والنقد العلمي الأصيل لابد منه من أجل إحقاق الحق، ولكن النقد إن كان للإساءة فيصرف تحت عناوين قانونيه مثل الشتم والذم والتحقير والقدح الغيابي والوجاهي وغيرها من الألفاظ القانونية والشرعية.

والحق الواجب اتباعه أن الكاتب مؤتمن على كتاباته، فالعالِم يخدم البشرية بعلمه ولا ينبغي اتباع الهوى في الرد على العلماء حتى لا يُساء إلى العلم من هذا الباب.

فبعض الناس من غير المختصين ربما لم يقرأ إلا هذه العبارة في الكتاب، وبعضهم لم يسمع إلا هذه المحاضرة، فلماذا ندل الناس على سقطات العلماء وهفواتهم؟

كتب أحد العلماء على صفحات بعض المنتديات الخاصة بعلوم القرآن الكريم، كلاماً علميا تفوح منه رائحة الحقد والحسد في الرد على مؤلف من أجلِّ علماء



الأمة في التفسير وعلوم القرآن، ومن أشهرهم ومن أكثر العلماء قرباً من الناس لكثرة جهده ونشاطه في التدريس والتعليم.

فتواصلت مع الناقد خفية وتحاورت معه، ولكن دون أي جدوى ودون أدنى استجابة، وأسمعني كلاما أساء وتمادى فيه كثيرا، وكم تمنيت أني لم أتدخل في هذا الموضوع، وختمت كلامي بقولي: لو كان عملك وقولك لله لم يلبس هذا الثوب.



العلم والطائفية

التقيت مرةً برجل يسأل صاحب مكتبة عن كتاب شرح الإمام النووي على صحيح البخاري، كنت في المكتبة أبحث بين الرفوف فسمعت هذا السؤال الغريب واستمعت لصاحب المكتبة وهو يقول: لم أسمع بهذا الكتاب قط.

تقدمت وقلت لصاحب المكتبة لطفاً لو سمحت الإمام النووي وشرح فيه مجموعه من أحاديث صحيح البخاري وتوفي قبل تمامه وقد طبع ما كتبه النووي في مجلد واحد وهو مفقود لا يكاد يعرفه أحد.

وقفت مع السائل قليلاً أعجب بهذه المعلومة وبين لي سبب بحثه عن الكتاب وقال:

أنا أريد أن أعرف ماذا قال الإمام النووي عن موضوع الصحيفة، عندها عرفت وأدركت أن السائل يتبع المذهب الشيعي، وما من مشكله عندي في التعامل مع أي شخص ومهما كانت عقيدته أو مذهبه وبدأ هو يشرح ويفسر ويفصل حول مذهبه وآرائه وتحدثنا طويلا ثم تواصلنا من خلال الهاتف ودار بيننا نقاش طويل استمر ما يزيد على شهرين في كل يوم أجلس قرابة الساعتين أحاور

وبعدها أبحث وأحقق لأبين الحق، وهو مثلي أيضاً يبحث ويدقق النظر في كتبه وكتبنا، وكلانا حريص على عدم الاقتناع برأي الآخر وعدم قبول قوله، والبحث في كل مسألة عن بوادر النصر.

وبعد ما يقارب الشهرين سألت صديقي الشيعي سؤالاً وقلت:

صديقي العزيز تُرى لو حرصنا سويةً أنا وأنت على دراسة علم من العلوم كعلم الرياضيات أو الأحياء أو غيره من العلوم، لو عكفنا في كل يوم ساعتين أو أزيد على دراسة علم من العلوم أو فن من الفنون ماذا سنحصل وما هو مقدار الفائدة التي سنحققها؟

ثم كتبت له:

لن أناقشك صديقي بعد الآن، إذ لا سبيل لبيان الحق بيننا.

إذا تدخلت في العلم الطائفية صار هدف العالم الدفاع عن طائفته لا الدفاع عن العلم والحقيقة العلمية.

كثيراً ما يكتب المُأطِّرون للبحث العلمي عن الموضوعية في البحث العلمي، وعند قراءة نتاج الباحثين تجد عدم العناية بالموضوعية والنزاهة في الكتابة.

مأساة التعليم

لا بد أنك تذكر أخي القارئ الكريم صراخ المعلم في غرفة الصف، وتذكر جيدا خروجه من الصف متعباً بائساً بعد طول العناء في التدريس وعدم استقبال الطلاب للمعلومة، وليس المعلم في المدرسة وحده بل المدرس في الجامعة والمعهد والكلية كلهم يبذلون جهدهم في التعلم وفي بعض المواقف يصابون باليأس والشعور بالفشل لكثرة مشكلات الطلاب وعدم احترامهم وعدم تقديرهم لجهود المعلم.

وأكثر من يشعر باليأس والتعب من المعلمين والمربين والمدرسين الأذكياء منهم؛ فمن الملاحظات التي كنت أسجلها على بعض المعلمين أن المعلم الذكي صاحب أعلى المعدلات والنتائج يواجه صعوبات في إيصال المعلومة للناس، وما ذاك إلا لأنه ذكي يحصل على المعلومة بسرعة، فهو غير متمرس على كثرة التكرار والمراجعة بل يتميز بقوة الحافظة.

أما بالنسبة للمعلم صاحب التحصيل الأقل في الدراسة فهو يُتقن التدريس أكثر من غيره لأن حصوله على المعلومة يحتاج وقتاً أكثر من غيره، ثم عندما يصبح

مدرسا يراعي حالة الطلاب الذين يعانون من بطء الفهم والحفظ.

وجميع ما تقدم استنتاج لاستقراء شخصي، ومع تقديرنا لجميع المدرسين والمربين.

العلم والشهادات الدراسية

دخلت مؤسسة تُعنى بالبحث والدراسة، زرت صديقا تربطني به علاقة أخويه منذ سنوات طوال، جلست مع صديقي وأثناء جلوسنا كان يتردد على مكتبه شاب يعمل في ذات المؤسسة يحضر أوراقاً ويأخذ أوراقاً أخرى، يسأل بعض الأسئلة العلمية الدقيقة التي أفهم بعضها والكثير منها مما لا أعرفه.

سألت صديقي من هذا الشاب؟

وكانت حالته رثه وأثوابه شبه بالية....

ولا يُرى عليه كما أرى الموظفين في تلك المؤسسة فالكل يرتدي أحلى وأغلى الثياب....

أجاب صديقي: هذا الشاب الذي ترى موظف بسيط جداً يعمل ضمن الفئة الثالثة والتي تشمل الوظائف الحرفية والمهنية والخدمات المساعدة، لكن لا تصدق إن قلت لك أن كل الدراسات والأبحاث التي تجريها المؤسسة هي نتاج هذا الشاب البسيط.... لا يحمل شهادة علميه لكنه عالم من العلماء المتميزين، لا أبالغ حين أطلق عليه هذا اللقب.

قصة أخرى يرويها لي أحد الفضلاء من الباحثين، يقول الباحث:

سألني بعض الإخوة من حملة شهادات الدكتوراه أن أكتب له بحثاً مُحكَّماً للمشاركة في مسابقة دوليه تُعنى بالقضايا السياسية والمجتمعية، فأجبته راغباً في الكتابة وأهديته هذا العمل الذي كلفني من الوقت أزيد من شهرين ولم يعرض علي أي بدل أو مقابل مع أني كنت أحب أن أسمع منه كلمة شكر أو ثناء أو أن يعرض علي مبلغاً من المال فأقول له هذا الجهد هدية للأخ الفاضل.... مع العلم أن هذا العمل يكلف مئات الدنانير عند غيري.

وبعد مدةٍ من الزمان زُرت صديقي بعد أن شارك في البحث العلمي وحقق أعلى النتائج والحمد لله، جلست عند صديقي في المكتب وهو مكتب يليق بصاحب منصب ورياسه وشهادة مثله، ودخل إليه أحد الزملاء وسأله عن البحث فهو يريد نسخه منه نظرا لقيمته العلمية، فأعطاه صديقي نسخة من البحث، ثم أخذ يمازحه صديقه ويقول من كتب لك هذا البحث؟!!

فأقسم صديقي أقساماً متتالية أنه هو من كتب البحث وأنه سهر الليالي ذوات العدد وهو يكتب ويبحث ويؤلف ويقول صديقي الباحث:

لا أملك في مثل هذه المواقف إلا جوهرتين:

جوهرةٌ سالت من عيني اليمين وجوهرةٌ أخرى من عيني اليسرى....

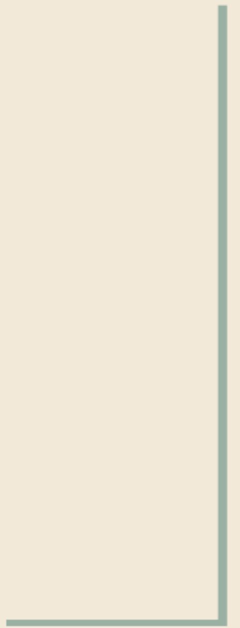
في المثالين السابقين دلالة واضحة على أن الكثير من الباحثين لا تتيسر له أمور الدراسة الجامعية لكنه باحثٌ وعالمٌ يمضي وقته بل حياته بحثاً ودراسة وعلماً ولكن عدم امتلاكه للشهادة ثبطه عن الإنتاج لنفسه فهناك فرق بين أن يقال الدكتور فلان قدم جديداً للعلم والمعرفة، وبين أن يقال فلان قدم جديداً للعلم والمعرفة.

وقد سمعت مرةً رجلاً حاز المناصب العالية يقول: أنا أريد الحصول على شهادة الدكتوراه في أي علم من العلوم، لكن أريد أن يقول الناس الدكتور فلان، وقال هذا بحضرة اثنين من أصحاب الرياسة والمناصب العلية، وكانا يحملات شهادة الدكتوراه، فقالا:

كلانا درس حتى يقال الدكتور فلان.

وهذه آفة كبيرة في المجتمع وخلل واضح فيه.



البحث العلمي واقع وآلام

البحث العلمي لا يعرف الخجل، البحث العلمي لا يوجه إلى طائفه، أو رأي محدد، البحث العلمي له قيمته وشرفه ومنزلته لا دخل له بالسياسة ولا بالرياسة.

وهذه القاعدة ليست ضرباً من التنظير فقط بل هو ما يجب أن يكون عليه البحث، لكن في النفس غصصٌ، فواقع البحث مرير غزته جهات كثيرة لا تريد إلا توجيه الأقلام حسب ما تريد وتوجيه النتائج وفق ما ترغب بعض الساسة أو التجار.

وإن أصعب ما عرفت البشرية من مآسي وآلام تلك النتائج البحثية للعلوم المسمومة، علوم صناعة السلاح وعلوم تصنيع الأسلحة الوبائية والأسلحة الفتاكة القائمة على نشر الأمراض بالغازات وغيرها.

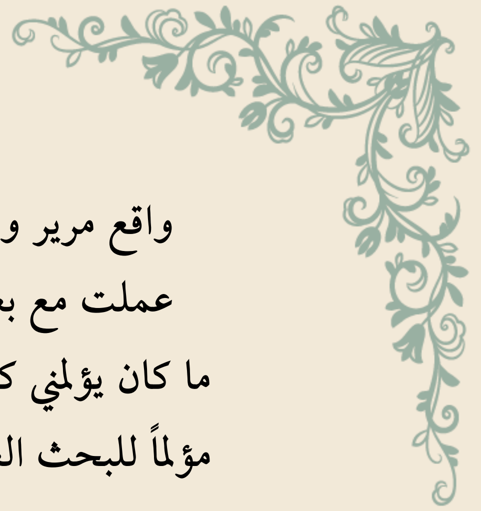
حار الفكر إذ بيعت الأقلام

حار الفكر إذ سيست الأبحاث

حار الفكر إذ انقلبت نتائج العلم

العلم خادم للبشرية

لكن العلم صار أداة قتل في أيدٍ لا تعرف الرحمة لا رحمة الفكر ولا رحمة الحياة.



واقع مرير ومستقبل مقيد.

عملت مع بعض المراكز البحثية مدةً من الزمان وأكثر ما كان يؤلمني كلمات ما زال وقعها في نفسي يقرر واقعاً مؤلماً للبحث العلمي....

كان يقال لي قبل البدء بالكتابة:

لا تذكر اسم فلان...

إذا نقلت عنه فلا تذكر اسمه...

المركز يريد أن تكون النتيجة كذا....

هذا البحث لإثبات كذا وكذا.......

المركز يريد والمركز لا يريد، أما الحقيقة العلمية فهي تابعة لإرادة المركز وسياساته، وهذا هو الداء العضال الذي أوقع الأمة في غيابات الجب ولن تخرج منه حتى تتحقق لفكرها الحرية.



البحث العلمي في الجامعات

لو سألنا: ما هي مجريات ونفقات دول العالم الثالث على البحث العلمي؟

ستكون الإجابة صادمة إذا اطلعت على الأرقام القليلة لتغطية نفقات الدول على البحث العلمي في عالمنا الثالث.

ثم إنك إن دققت النظر وبحثت عن هذه المبالغ التي ترصدها الجامعات للبحث العلمي أين تصرف وفيم تنفق، ستجد نفسك في حيره أكبر وأكثر.

بعض الجامعات تجد فسحةً في الإنفاق على البحث العلمي؛ فتصرف المال في غير وجه حق، وتنفق المال فيما لا طائل منه؛ حيث تقرر لجنة علميه إرسال باحث إلى دوله متقدمة فتنفق عليه المال الكثير، ولكن ما هو النفع الذي عاد على البلد والجامعة والمواطن....

لا نكذب القول إن جزمنا بسوء التدبير في هذا المقام.

وحاصل ما تقدم أن الإنفاق على البحث العلمي في بلادنا قليل جداً، ثم إن هذا القليل لا يسلم من سوء التصرف والتدبير، ولا شك أننا نحتاج إلى تقييم ودراسات

ومحاسبات حول هذا الموضوع، مع احترامنا وتقديرنا للملتزمين والقائمين بحقوق العمل.

وسيأتي الحديث لاحقا حول ذات الموضوع في القسم الثاني من الكتاب بإذن الله تعالى.

هجرة العقول والكفاءات

التقيت قبل عشر سنوات تقريباً بعالم عربي يعمل في مجال الهندسة والإلكترونيات، أخبرني أنه من أوائل الذين أدخلوا هذا التخصص إلى بلده، وقد عُرض عليه أضعاف مرتبه خارج بلده لكنه آثر القلة في مقابل خدمة بلده، وبقي صامدا حتى في السنوات العجاف لم يترك وطنه، وما ترك العمل والتدريس والإنتاج.

ربما تكون هذه الحالة نادرة بعض الشيء لأن هذا الرجل الفاضل وهذا العالم الجليل يعطينا مثلاً عظيماً في التضحيات، لا شك أن بلده يحتاج مثله، ولا شك أنه يحتاج المال لتدبير أمور عيشه.

بيع الكتب

كان يقول أحد مشايخنا الكرام:

"**لا يوجد أشقى ممن باع كتبه**".

وقد شهدنا بعض طلاب العلم افتقر فباع كتبه فشقي بعد ذلك شقاءً ما بعده شقاء.

ومما شهدنا من مصائب العراق أن عالماً عراقياً ينادي في سوق المتنبي يدلل على كتبه لينفق على نفسه وعلى عياله يبيع وينادي عليها وهو يبكي ويقول بحرقه:

"العالم العراقي باع كل شيء...، ولما لم يبقَ عنده إلا الكتب... باعها أيضا".

بيع الكتب بسبب الفقر يورث الهم والغم والحسرة والندامة يعيش العالم عيشةً ملؤها الحسرة لأنه باع أغلى ما يملك.

وقد سجل لنا التاريخ حادثة من أجل ما يبرهن به على ما تقدم فقد قال ابن خلكان رحمه الله:

"حكى الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي اللغوي: أن أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سلك الفالي الأديب كانت له نسخة بكتاب "الجمهرة"؛ لابن دريد في غاية الجودة، فدعَتْه الحاجةُ إلى بيعها، فباعَها واشتراها

الشريفُ المرتضى أبو القاسم بستين دينارًا، وتصفَّحها، فوجد بها أبياتًا بخطِّ بائعها أبي الحسن الفالي"، وهي:

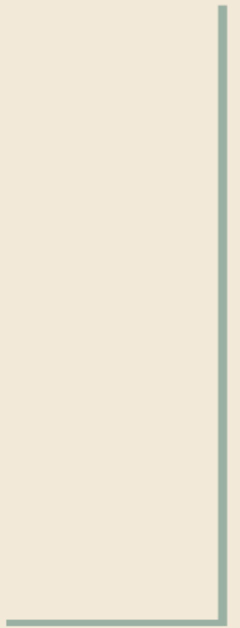
أَنِسْتُ بها عِشرينَ حولاً وَبِعْتُها
لقد طالَ وَجْدي بعدَها وحنيني
وما كان ظَنِّي أَنَّني سأَبيعها
ولو خلَّدتْني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصِبْيَةٍ
صِغارٍ عليهم تَستَهلُّ شؤُوني
فقلتُ ولم أَمْلِكْ سوابقَ عَبْرةٍ
مقالةَ مكويٍّ الفؤادِ حَزين
وقد تُخرجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ
كرائمَ من ربٍّ بهنَّ ضنين

(وفيات الأعيان)

وهذا الأمر شائع بين العلماء وهو أشد عليهم من وقع الحسام المهند، وأصعب مرارة من تجرع السم الفاتك كيف لا وكتب العلماء فيها لذاذة الحياة وسعادة العيش.

ومن المآسي والهموم المتعلقة ببيع الكتب سوء تصرف الورثة بالكتب فبعضهم يحرقها وغيرهم يبعها بسعر زهيد جداً وبعضهم يتركها في مكانٍ حتى تصاب بالتلف وغير ذلك الكثير.... مما نشاهد ونطالع أيامنا الحاضرة.



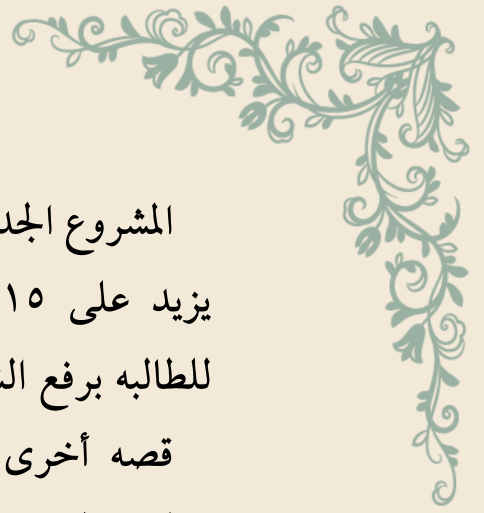
سرقة الجهود العلمية

تقدمت طالبة في جامعة من الجامعات بفكرةٍ إبداعية تخدم الجامعة وتخدم الطلاب، ثم كان من أمر الطالبة أنها اضطرت لترك الجامعة والانتقال إلى جامعة أخرى أقرب إلى مكان سكنها، ولا شك أن الطالبة تريد تقليص النفقات فهي من أهل العلم، وهناك جفوه بين العلم والمال كما تقدم.

وبعد انتقال الطالبة إلى الجامعة الجديدة تقرر الطالبة المفكرة زيارة جامعتها القديمة، والسؤال عن مشروعها وفكرتها الإبداعية حيث تقدم الجامعة لمثل هذا العمل مكافأة ماليه.

تتفاجأ الطالبة أن المشروع تم استثناؤه ليحل مشروع آخر مكانه...، ولكن ما هو المشروع الجديد؟ تنظر في المشروع الجديد لتجده نفس مشروعها هي، وتقدم شكوى أن جهدها سُرق وأُعطي لموظف من موظفي الجامعة، لكن للأسف تخرج نتيجة التحقيق ضد الطالبة الفقيرة.

فبعد التدقيق والتحقيق ظهر أن:

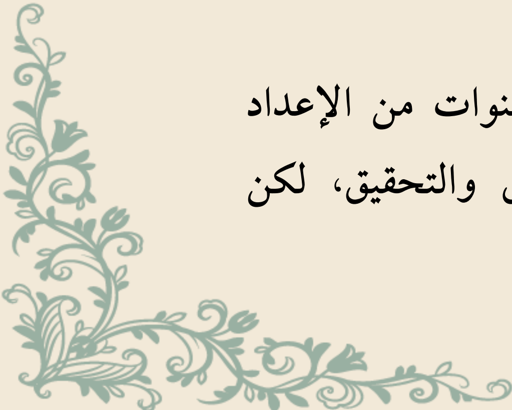


المشروع الجديد أضاف إلى المشروع القديم تغيراً جديداً يزيد على ١٥٪ من المشروع القديم لذلك لا أحقيه للطالبه برفع الشكوى والمطالبة بالحقوق المالية.

قصه أخرى حدثت مع شيخ جليل القدر نذر كل مؤلفاته في سبيل الله لا يريد عليها أجراً من أحد من الناس تزيد مؤلفاته عن خمسين كتاباً، وقد اعتزل الناس أكثر من عشرين سنه وانقطع للتدريس في المسجد والتأليف متخصص في علم القراءات القرآنية والتجويد.

جلست معه مرةً في المسجد فأخبرني أنه وَثِق بطالب من طلابه وأعطاه الملفات المنضدة على الحاسب الآلي والتي حوت جميع مؤلفاته وكتبه، ولكن الطالب خان أستاذه وقدَّم هذه الكتب لدار نشر في دوله مجاورة، وقامت دار النشر بطباعة بعض الكتب مع تغير بسيط جداً، ومما يدل على هذا أن الشيخ الجليل استدرك الأخطاء المطبعية في الطبيعة الأولى، أما السارق فلم يستدرك الأخطاء، وجلست مع الشيخ أتتبع الأخطاء القديمة فوجدها كما هي.

جهود كبيره تأخذ من المؤلفين سنوات من الإعداد والتأليف والجمع والتنقيح والتدقيق والتحقيق، لكن



وللأسف تُسرق في وضح النهار ويعاد تدويرها مرةً أخرى.

قصص كثيرةٌ عن السرقات العلمية لا تستطيع الأوراق حملها، وتستحي من بعضها الأقلام، حيث بعض السرقات تصدر من أصحاب الصدارة العلمية.

رهاب الإبداع

ذكر ياقوت الحموي أن القاضي علي بن محمد سمع أن أبا حيان أحرق كتبه التي ألفها في حياته فأرسل إليه يعاتبه، فكتب أبو حيان اعتذارا وأنا أسوق رسالته كاملة وأضع العناوين التفسيرية لأهم المحاور:

اعتذار أبي حيان عن حرقه للكتب

قال أبو حيان: "حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك، وأعاذني من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعا مما يسود وجه عهد إن رعيناه كنا مستأنسين به، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله، فأدام الله نعمته عندك وجعلني على الحالات كلها فداك. وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقّع، على ظماء برح منّي إليه، وشكرت الله تعالى على النعمة به عليّ، وسألته المزيد من أمثاله الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ والصبابة نحوي وما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمي إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك،....

التذكير بالفناء

قال أبو حيان: كأنك لم تسمع قارئا يقرأ قوله جلّ وعز: (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [القصص: ٨٨] وكأنك لم تأبه لقوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ) [الرحمن: ٢٦] وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر ما دام مقلّبا بيد الليل والنهار، معروضا على أحداث الدهر وتعاور الأيام.

ألم الكاتب والقارئ

قال أبو حيان: ثم إني أقول: إن كان-أيدك الله-قد نقب خفّك ما سمعت فقد أدمى أظلّي ما فعلت، فليهن عليك ذلك فما انبريت له ولا اجترأت عليه حتى استخرت الله عز وجل فيه أياما وليالي، وحتى أوحى إليّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدّ فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحثّ على تنفيذ ما وقع في الرّوع وتريّع في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي.

دواعي العلم

قال أبو حيان: "إن العلم حاطك الله يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرا عن العلم كان العلم كلّا على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلا وأورث ذلا وصار في رقبة صاحبه غلا، وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار".

التعريف بما حوته الكتب

قال أبو حيان: "ثم اعلم-علمك الله الخير-أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سرّه وعلانيته، فأما ما كان سرّا فلم أجد له من يتحلّى بحقيقته راغبا، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبا، على أني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم ولمدّ الجاه عندهم، فحرمت ذلك كله، ولا شكّ في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي وربطه بأمري، وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة عليّ لا ليط.

المجتمع حول العالِم

قال أبو حيان: "ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أني فقدت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا، وصاحبا قريبا، وتابعا أديبا، ورئيسا مثيبا، فشق عليّ أن

أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنّسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها".

فقر وذِلَّة

قال أبو حيان: "فإن قلت: ولم تسمهم بسوء الظن وتقرّع جماعتهم بهذا العيب؟

فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقّق ظنّي بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لي من أحدهم وداد ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضراوات في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالنفاق والسمعة، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك وشدة تتبعك وتفرغك،. وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته، بما قدّمته

ووصفته وبما أمسكت عنه وطويته، إما هربا من التطويل وإما خوفا من القال والقيل".

التقدم في السن واليأس من الحياة

قال أبو حيان: "وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أو غد، فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة أو رجاء لحال جديدة، ألست من زمرة من قال القائل فيهم:

نروح ونغدو كلّ يوم وليلة
وعما قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر:

تفوّقت درّات الصبا في ضلاله
إلى أن أتاني بالفطام مشيب

الموعظة الحسنة وهذا البيت للورد الجعدي، وتمامه يضيق عنه هذا المكان.

والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان، في هذا الصقع، من الغرباء والأدباء والأحبّاء لكفى، فكيف بمن كانت العين تقرّبهم والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والريّ وما والى هذه المواضع، وتواتر إليّ نعيهم واشتدّت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟

أسأل الله تعالى ربّ الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولا بنزوعي عما أقترفه، إنه قريب مجيب".

الأسوة بمن حرق كتبه

قال أبو حيان: "وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ويؤخذ بهديهم ويعشى إلى نارهم، منهم أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر. وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهدا وفقها وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول. وهذا يوسف بن أسباط، حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحها فيه وسدّ بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلّنا العلم في الأول ثم كاد يضلّنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل من أردناه. وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك. وهذا سفيان الثوري مزّق ألف جزء وطيّرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفا. وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد

العلماء قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار".

"وماذا أقول بعد هذا، وبماذا تقابلني بعد ذلك، سوى أني أقول وسامعي يصدق: إن زمانا أحوج مثلي إلى ما بلغك لزمان تدمع له العين حزنا وأسى، ويتقطّع عليه القلب غيظا وجوى وضنى وشجى، وما نصنع بما كان وحدث وبان، إن احتجت إلى العلم في خاصة نفسي فالقليل والله تعالى شاف كاف، وإن احتجت إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس إلى أن تفنى الأنفاس بعد الأنفاس، وذلك من فضل الله تعالى عليّ (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [الجاثية: ٢٦] فلم تعنّى عيني-أيدك الله-بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح، وبالسواد والبياض؟ "

العمل الصالح والإخلاص

قال أبو حيان: "وهل أدرك السلف الصالح في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح والإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كلّ ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج وهوى بصاحبه إلى الهبوط؟ وهل وصل الحكماء القدماء

إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي وإلا بالرضى بالميسور وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم؟ فأين يذهب بنا وعلي أيّ باب نحطّ رحالنا؟ وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب، وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليهما؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرهما؟ هيهات!! "

عودة إلى اليأس من الحياة

قال أبو حيان: "الرحيل والله قريب والثواء قليل، والمضجع مقض والمقام ممضّ، والطريق مخوف والمعين ضعيف، والاغترار غالب، والله من وراء هذا كلّه طالب، نسأل الله تعالى رحمة يظلنا جناحها، ويسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره، فهذا هذا".

المرض والعلة

قال أبو حيان: "ثم إني- أيدك الله- ما أردت أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك وشدة التوائك عمن لم يزل على رأيك، مجتهدا في محبتك على قربك ونأيك، مع ما أجده من انكسار النشاط، وانطواء الانبساط، لتعاور العلل عليّ، وتخاذل الأعضاء مني، فقد كلّ البصر وانعقد

اللسان، وجمد الخاطر وذهب البيان، وملك الوسواس، وغلب اليأس من جميع الناس، ولكني حرست منك ما أضعته مني، ووفيت لك بما لم تف به لي، ويعزّ عليّ أن يكون لي الفضل عليك أو أحرز المزية دونك، وما حداني على مكاتبتك إلا ما أتمثله من تشوقك إليّ وتحرقك عليّ، وأنّ الحديث الذي بلغك قد بدّد فكرك، وأعظم تعجبك، وحشد عليك جزعك، والأول يقول:

وقد يجزع المرء الجليد وتبتلي
عزيمةَ رأي المرء نائبة الدهر
تعاوره الأيام فيما ينوبه
فيقوى على أمر ويضعف عن

حالة لا تسرُّ

قال أبو حيان: "على أنك لو علمت في أيّ حال غلب عليّ ما فعلته، وعند أي مرض، وعلى أية عسرة وفاقة، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته. وإذا أنعمت النظر تيقنت أن الله جلّ وعزّ في خلقه أحكاما لا يعاز عليها، ولا يغالب فيها، لأنه لا يبلغ كنهها، ولا ينال غيبها، ولا يعرف قابها ولا يقرع بابها، وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أدانينا

وأقاصينا، له الخلق والأمر، وبيده الكسر والجبر، وعلينا الصمت والصبر، إلى أن يوارينا اللحد والقبر، والسلام".

ختام الرسالة

قال أبو حيان: "إن سرّك -جعلني الله فداك- أن تواصلني بخبرك، وتعرفني مقرّ خطابي هذا من نفسك فافعل، فإني لا أدع جوابك إلى أن يقضي الله تعالى تلاقيا يسرّ النفس، ويذكّر حديثنا بالأمس، أو بفراق نصير به إلى الرمس، ونفقد معه رؤية هذه الشمس، والسلام عليك خاصا بحقّ الصفاء الذي بيني وبينك، وعلى جميع إخوانك عامّا بحقّ الوفاء الذي يجب عليّ وعليك والسلام".

وكتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة أربعمائة" (معجم الأدباء، ٥/ ١٩٢٣-١٩٣٣).

وبعد إيراد رسالة أبي حيان أقول:

لست من هواة النقل المطول والنسخ واللصق في هذا الكتاب خصوصا -وفيما يأتي بعده بعون الله وإن كنت فعلته سابقا-، ولكن لا أبالغ إن قلت إن كلمات أبي حيان أثرت فيَّ أيما تأثير، قرأت كلامه مرات ومرات، خصوصا هذه الأيام وقد زارني أسقام وعلل حار الأطباء في حلِّها، وحولي أزيد من خمسين كتابا أنفقت الأوقات

الطويلة والجهود الكبيرة في كتابتها لكنها تحتاج إلى تنقيح وتهذيب، ولا أدري إلى أي ركن آوي، ولا أعرف مصير كتبي.

وعلى كل فهذا الكلام الذي يقدم فيه أبو حيان اعتذاراً مقبولاً إلى حد ما، ولكنه نوع من رهاب الإبداع الذي أقدم عليه مجموعة من العلماء كما ذكر، وهذا الرهاب في نظر الكثير يُعدُّ ضرباً من الجنون وبغض النظر عن المبررات التي يقدمها العلماء والمؤلفون.

صحيح أن الكثير من العلماء يرجع عن رأيه وينمو فكره وتتطور معارفه فيتراجع عن بعض آرائه، وبعض الكتب يبنى على فكرةٍ في ظن الكاتب أنها فكرة باطلة، تراجع عنها.

وعند الحديث عن عذاب العلماء ورهاب الإبداع نتصور حاله العالم بين خوفه من أن يؤثر عنه ما لا يحب نشره، وهو بين صراع وحنين لما كتب، فالكاتب يتمتع بحالة نفسيه عالية الشأن لدرجة أنه يقدس ما كتب وفي نظره كتاباته لها الشأن والقبول عنده، ومع هذا التقديس إلا أنه يخاف من المجتمع، وتداعيات الكتابة، وهذا مبدأ الصراع.

فالصراع يدور في عقله ويشغل جميع أوقاته، وهذا الصراع نوع مؤلم من العذاب.

وقد وقع بين يدي اليوم وقبل كتابة هذه الكلمات بساعات، في مكتبة لبيع الكتب كتاب (الإشارات الإلهية) لأبي حيان، بتحقيق المحقق المبدع عبد الرحمن بدوي، وهو من كتبه التي لم ينلها الحرق ولا رهاب الإبداع، فتاقت نفسي إليه، ولكن للأسف كان قد سبقني إلى هذا النفيس النادر أحد الأفاضل.

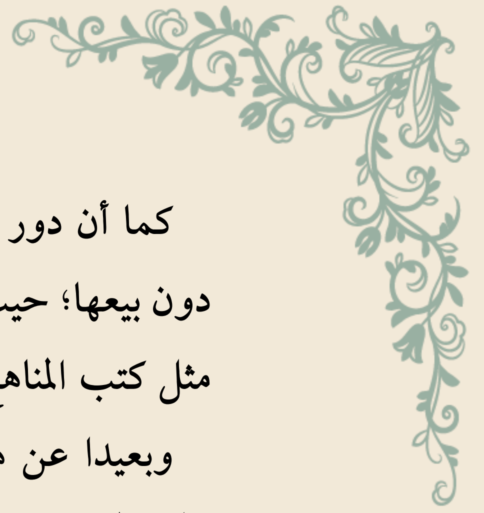
عذابات النشر والطباعة

بعد عناء الكتابة والتأليف وبذل الجهود الكبيرة من سهر وانقطاع عن الأهل واعتزال الناس، يُقبل المؤلف المسكين على دور النشر والطباعة.

يدخل الكاتب حاملاً أوراقه الثمينة، وهي في نظره أغلى من كل جواهر العالم ودرره، وقبل أن يقرأ صاحب دار النشر العنوان وقبل الاطلاع على الكتاب ومضمونه يتقدم بسؤال للكاتب:

لطفاً.... من هو جمهورك؟

وهذه ألطف العبارات التي يقدمها صاحب دار النشر للكاتب، فهناك بعض العبارات التي يهاجم فيها بعض أصحاب دور النشر الكاتب، عبارات قاسيه، يتبين للكاتب بعدها أن العلم آخر شيءٍ ينظر إليه القراء ودور النشر ولست أهاجم دور النشر بهذه العبارات لكن دار النشر لها نظرتها ففيها مجموعه من العمال يحتاجون إلى تقاضي رواتب وهناك رسوم وضرائب وغير ذلك من النفقات.



كما أن دور النشر لا ترغب بتكديس الكتب في الدار دون بيعها؛ حيث تبحث عن الكتب الرائجة بين الجماهير مثل كتب المناهج الدراسية في الجامعات والكليات.

وبعيدا عن هذا تجد بعض الكتب تتنافس دور النشر على طباعتها ونشرها، وما هو السبب الداعي لذا الأمر؟

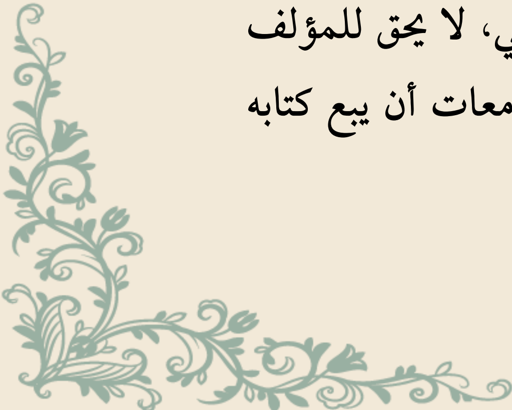
سألت صديقا يعمل في مكتبة عن كتابٍ لأحد أشهر الكتاب في بلدنا.

تبسم... قليلاً ثم قال: أخي العزيز... أريد أن أقدم لك نصيحة دعك من هذا التاجر.

وأخذ يسرد لي قصة المؤلف المشهور وغيره من المؤلفين ذائعي الصيت، وكانت كلماته قاسيه جداً في حق تجار الثقافة وبائعي المعرفة.

نعم للكاتب حقٌ في أخذ أجرة ما كتب لكن ليس له أن يستغل الناس، ويستخدم اسمه المشهور في كتابة أي شيء له قيمه أو ليس له قيمه.

لا يحق للكاتب استغلال القُرَّاء وبيع النسخة المزينة بتوقيع المؤلف أضعاف سعرها الحقيقي، لا يحق للمؤلف الذي قُرِّرَ كتابة منهجا يُدرَّس في الجامعات أن يبع كتابه بضعف السعر...



شهدت كتاباً ألف يبغي صاحبه الحقيقي تدريس الكتاب في الجامعات كمنهاج لأحد المواد الأساسية التي اتفقت في تدريسها كل الجامعات.

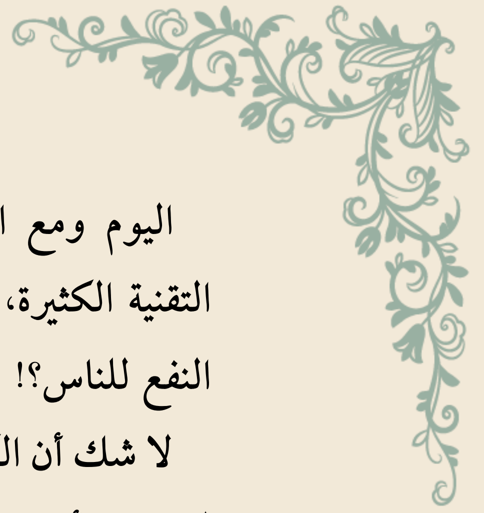
سمعت المؤلف يجري اتصالاته مع بعض المدرسين الذين يدرِّسون المادة التي ألف فيها الكتاب، يجري اتصالاته مع مدرسين من مختلف الجامعات ويقول في اتصاله:

السلام عليكم أنا الدكتور...، ألفت كتاباً في مادة...، وأرغب أن تشاركني هذا الجهد، وأن تزين الكتاب بوجود اسمك عليه مع العلم أن الكتاب سوف يقرر في جامعة... وجامعة... وجامعة...

وافق على هذا العرض ثمانية من الأساتذة في الجامعات، وللأسف لم يطلع على مادة الكتاب أحد منهم.

وغير هذا من آفات النشر والتوزيع للكتب.

لكن لماذا يُصرُّ الكاتب على جمع الأموال من كتابه، وجعل الكتاب سلعة تجارية، لماذا لا يُفكر بالعلم قبل كل ذلك، هيمنة المال على العلم تُذهب قيمته وحلاوته.



اليوم ومع اتساع دائرة العلم والمعرفة عبر القنوات التقنية الكثيرة، لماذا لا نفكر بالنشر الإلكتروني، وعموم النفع للناس؟!

لا شك أن الكاتب له ظروفه وأحواله، لكن فكرة النفع لا ينبغي أن تغيب عن عقل الكاتب.



نفس العالم وعزتها

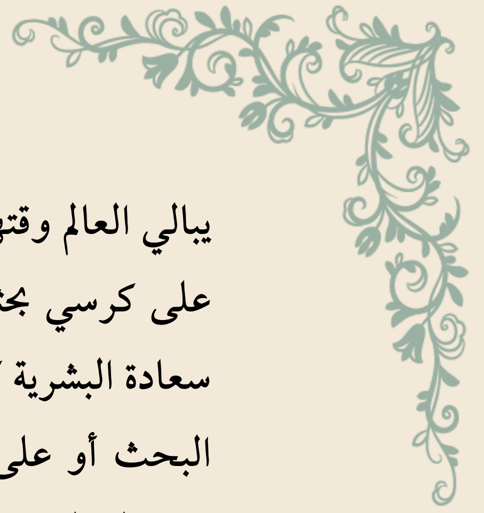
رغم العذابات التي ذكرت وتقدمت الصفحات السابقة إلا أن العالِم عزيزٌ أمام نفسه عزيزٌ أمام الناس، العالم له قدره ومنزلته.

وصل الكثير من العلماء إلى مرحلةٍ لم يصل إليها غالب البشر، مرحلة الرضا عن النفس فالنصيحة من أجل البشرية سعادة لا تقاس بمقياس وفرحة لا مثيل لها، كيف لا والعالم في أي صنف من صنوف العلم يقدم الخير والفضل للناس ويسهر من اجل البشرية، ويصحو وهموم البشر وآفات الحياة نصب عينه، يفكر مراراً وتكراراً في آلام الناس وعقبات حياتهم، لا يقر ولا يستقر ولا يهدأ له بال حتى يصل إلى بغيته ومراده، ومراداته مرادات الناس.

ينظر العالم إلى الحياة بعيون المتألمين والأشقياء...

يتطلع العالم إلى الحياة ومستقبلها بفكر المعذبين الفاقدين لأساسيات العيش....

سعادة العالم في تعليم الناس سبل الراحة وطرقها إذا قدم العالم للناس العلم والمعرفة فلا يبالي إذا فارق الحياة أثناء بحثه ودراسته، أو قبل أن يرى نتاج فكره وعمله، لا



يبالي العالم وقتها نام على فراشه بين أهله أم قيدته الغفوة على كرسي بحثه ودراسته، لا يبالي العالم إذ يبحث عن سعادة البشرية كيف يفارق الحياة بين الكتب أو في معامل البحث أو على سكة حديد أو جانب الطريق الحياة لا تعني إلا الإنتاج وخدمة الآخرين، وكلما أنتج العالم شيئاً فكر سريعاً أي الأشياء يتقدم لخدمة البشرية من جديد.

سألت أحد الفضلاء سؤالاً فأجاب إجابة وافية، ثم قال لي بعد أيام، وجدت أن هذا الموضوع يحتاج إلى بيان أكثر، وأُبشرك أني سأقوم بتأليف كتاب في هذا الموضوع لحاجة المجتمع لهذا الأمر.



مصير العلم والعلماء

ربما يتساءل البعض حول مصير العلم وهل نتيجة العلم ومصيره التعاسة لأهله؟

خصوصاً بعد عرض مجموعة من النماذج للعلماء الذين نالتهم أيدي الشقاء.

نلاحظ أن العلماء من سلم منهم من الفقر لم يسلم من المرض، ومن سلم منهم من الفقر والمرض لم يسلم من الهموم والمعاناة، بسبب الشعور بالذنب والتقصير وغير ذلك....، ولا شك أن أهل العلم تقدر جهودهم وتوقر، وربما في زمان العالم لا يؤبه لشأنه ولا يلتفت إليه، لكن هذه الجهود تقدر ويكتب لها القبول.

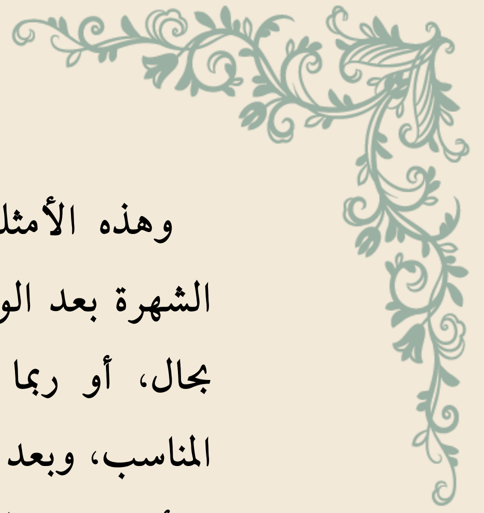
ولن أطيل في الشرح لأعرض الأمثلة الحية لأدلل على مثل هذه القاعدة، وأكتفي بذكر ثلاثة أمثلة فقط:

المثال الأول: الإمام البخاري الذي اتهم ظلماً وزورا بعد تأليفه كتابه (صحيح البخاري) وكلها اتهامات باطله زائفة، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه خرج من بلده بعد جهد دام ستة عشر عاماً في تنقيح الصحيح وتأليفه، خرج من بلده محزوناً حتى سأل الله تعالى الموت. والسبب ليس النقد للكتاب بل إنه لم يسلم من الوشاية والتآليف الكاذبة

عليه، وبعد وفاة الإمام البخاري وإلى يومنا الحاضر تحتفظ الأمة للإمام البخاري بالجهد والفضل وكل ما قيل في البخاري في زمنه وبعده نتمنى أن يوجه نحو النقد العلمي وحسب.

والمثال الثاني: هالي والمذنب المشهور، وقد تم تحديد دوران المذنب الأولى في عام ١٧٠٥ من قبل عالم الفلك الإنجليزي (إدموند هالي)، الذي أطلق اسمه عليه، والذي تم التأكد من نتائج أبحاثه حول المذنب بعد وفاته.

المثال الثالث: مثال في علم آخر وفي فن آخر من الفنون، وفي مجتمع مختلف تماما وهو في الرسم، والرسم علم عظيم يحمل في طياته الرسائل النبيلة بصورتها الجميلة، وقد بلغ أحد الرسامين درجةً عليَّه فيه وهو (فان كوخ) وهذا الرسام البارع الذي بلغ الغاية في الإتقان، وعاش هذا الرسام الذي كان يُعد من أشهر فناني التصوير التشكيلي عيشة تحيطه الحاجة والفاقة من كل جانب، ولكن لوحاته اليوم أغلى اللوحات في العالم، في حين كانت رسوماته تُحترم وتُقدر لكنها كانت زهيده الثمن في حياته.



وهذه الأمثلة تقرر الاحترام بعد الموت، واكتساب الشهرة بعد الوفاة، فيكون العالم حال حياته لا يؤبه له بحال، أو ربما يلتفت إليه ولكن لا يقدم له التقدير المناسب، وبعد وفاته تشتهر أعماله وترتفع درجاته.

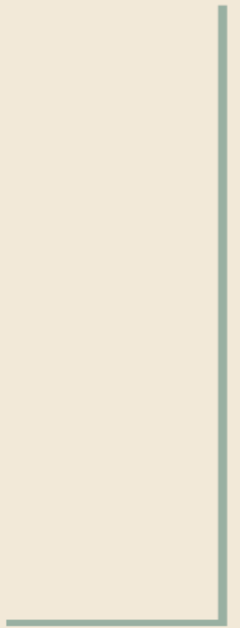
أما رفعة العالم خلال حياته فقد تحققت لفئة من العلماء، واشتهروا وذاع صيتهم في العالم، وهذا الأمر يتعلق بالمحيط حول العالم وبظروف أخرى تختص بالإنتاج والعمل نفسه.

وما يريد الكاتب أن يقرره من خلال هذا الطرح أنه على العالم أن يقدم نتاجه العلمي، ولا يُجهد نفسه في إقناع جميع الناس بأفكاره وأعماله فإن قُدِّرت هذه الجهود حال حياته فله الخير، وإن لم تقدر جهوده فستعرف الناس يوما أن صاحب الجهد لا يُنسى خيره وفضله.



آمال وتطلعات



القسم الثاني

آمال وتطلعات

مدخل

ربما لا يعني الكثير لغير الكاتب أن يبحث عن القلم الذي كتب فيه القسم الأول وهو قلم يكتب الحبر الأسود كما تقدم...

بحثت عن قلمي الأسود فلم أجده، وهو القلم الذي كتب صوراً من مأساة العلماء وطلاب العلم، وعندما عزمت على كتابة القسم الثاني من الكتاب والذي أُجمل فيه مجموعة من الحلول والتوجيهات لرعاية شؤون العلم وأهله،

وفي هذا القسم توجيهات عظيمة النفع للعناية والاهتمام بأهل الفضل وصنَّاع أمجاد الحياة....

والاهتمام بفئة العلماء والمفكرين يجب أن يكون ظاهرة بارزة في المجتمع حتى تحفز همم العلماء والمفكرين على الإنتاج والإبداع والابتكار.

دعم البحث العلمي

أول المقترحات التي يبدأ بها الكاتب هي دعم البحث العلمي فقد تقدم أن كثيراً من مشاكل العلم والعلماء ترجع إلى الحاجة وندرة الإمكانيات وصرف الأموال المخصصة للبحث العلمي في غير الوجوه المطلوبة.

ودعم البحث العلمي يبدأ أولاً من الشخص نفسه فمن وجد في نفسه حباً للعلم ورغبةً فيه. ومن لحظ عليه بوادر همة العلماء، عليه أن يسعى لتنمية هذا الفكر وحفز الطاقات والهمم على العلم والتعليم وهذا الدعم يعبر عنه بالدعم الشخصي العلمي.

ثم بعد أن يُشجع نفسه ويَحفِزها على العلم والتعلم ما أمكن، وجمع أكبر قدر من العلوم والمعارف عليه أن يُتقن ويَتفنن في علم أو تخصص، فإن أتقن تخصصه اتجه للإنتاج والعمل، ولكن الإبداع والإنتاج ربما يكون هواية وليس عملاً رئيساً وهذا الأمر يجعل العالم في حيرةٍ بين عمله وإنتاجه العلمي.

لكن ما يهمنا هنا أن نركز على الدعم المالي للإنتاج العلمي؛ فإذا كان العالم المتفنن في عمله يحب الإنتاج عليه أن يبحث عن مصدر تمويلي لقلمه دون التأثير على نفسه

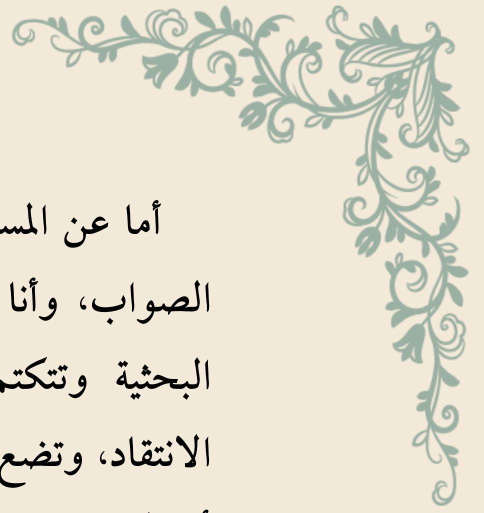
وعلى أهله، ولا يعني الدعم أن يمد يده للناس، بل الدعم الذي نريد هو دعم توفيري أو دعم من عملٍ إضافي ولا بأس بجهة تمويلية.

وقد رأيت كثيراً من المبدعين يمتنع عن إبداعه ويتوقف إنتاجه بحجة أنه لا يوجد من يمول البحث، وهذا الأمر منطقي إلى حد ما في حال كان البحث العلمي يحتاج إلى أموال كثيرة.

أما عن طبيعة الدعم للبحث العلمي فالدعم متنوع حسب طبيعة البحث؛ فمن الناس من يحتاج دعمه إلى مجموعة كتب، ومنهم من يحتاج إلى مختبرات وتقنيات فائقة، وهذا الأخير عليه التوجه ببحثه إلى المؤسسات الحكومية أو الجهات تجارية لأن هذه الأمور غالباً ما تجر نفعاً لصاحبها وراعيها.

وفيما يخص مؤسسات البحث العلمي في جامعاتنا الموقرة، فنحن اليوم بحاجه إلى أن نقف وقفة واحده لنسأل عن نتائج البحث العلمي وماذا قدمت لنا؟ وما هو نتاجها؟ وماذا قدمت لبلدها؟

أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابة وتقويم وإعادة ترتيب لكثير من الأمور.



أما عن المسابقات البحثية فنجد في بعضها حِيدةً عن الصواب، وأنا أعرف جهةً تحدد الفائزين في المسابقات البحثية وتتكتم على الجائزة الفائزة، كي تَسلم من الانتقاد، وتضع شرطاً عند تقديم الباحث للمسابقة وهو أن البحث بعد الفوز يعد ملكاً للمؤسسة لا يجوز نشره ولا التصرف به من قبل الباحث أو غيره، وقد يكون في هذا الشرط حق للمؤسسة لكن لماذا، لماذا لا يخرج البحث الفائز إلى الساحة العلمية؟؟

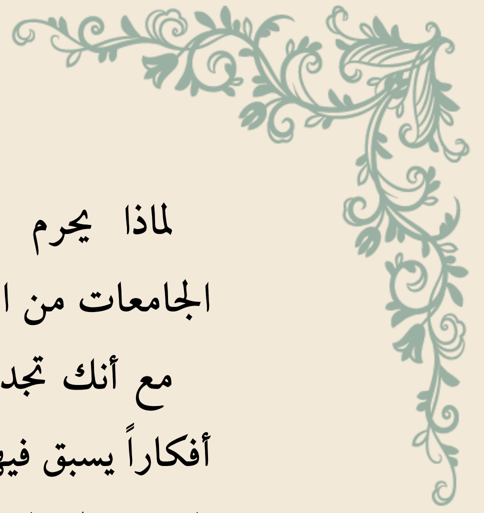
وما نحتاج إليه اليوم هو النظر إلى البحث العلمي على أنه بحث نزيه لا تشويه الشوائب ولا يُعكر صفوه شيء، وهذه النظرة يجب أن تكون من كل المجتمع ومن جميع فآته.

البحث العلمي ركيزة أساسيه من ركائز العلم والمعرفة والتقدم وبناء الحضارة، لا ينبغي أن يُهمل ولا ينبغي أن يُهمش.

وسؤال أخر فيما يخص البحث العلمي في الجامعات الموقرة:

لماذا يُخصص البحث العلمي في الجامعات بالمدرسين الراغبين في الترقية فقط؟





لماذا يحرم الطلاَّب ويحرم المخترعون من خارج الجامعات من الدعم؟

مع أنك تجد من بين الطلاب في الجامعات من يحمل أفكاراً يسبق فيها مدرسيه وأساتذته، وليس هذا الأمر من العيب ولا النقص، لكن بيان وإيضاح لبعض القدرات العقلية.

لماذا لا توسع الجامعات نطاقها، وتفتح الباب للمخترعين والمكتشفين، فهي تمتلك القدرات والإمكانات من مختبرات ومعامل وغيرها؟



الخطط الاستراتيجية

عملت في مؤسسة من المؤسسات مدة أربع سنوات في مجال أنظمة الجودة والتخطيط الإستراتيجي والتطوير، وكان جلُّ عملنا الكتابة على الورق، خططنا ورق، وفكرنا ورق وعملنا ترتيب الورق، وخلال مدة الأربع سنوات ملأت المكتب ومحيطة بالأوراق، ثم تركت العمل وسلمت جميع أعمالي للموظف الجديد، وقلت له انظر إلى هذا الكوم من الأوراق جيداً أترى هذا الكوم الكبير إن أنسب ما توصف به هذه الأوراق أن تقول:

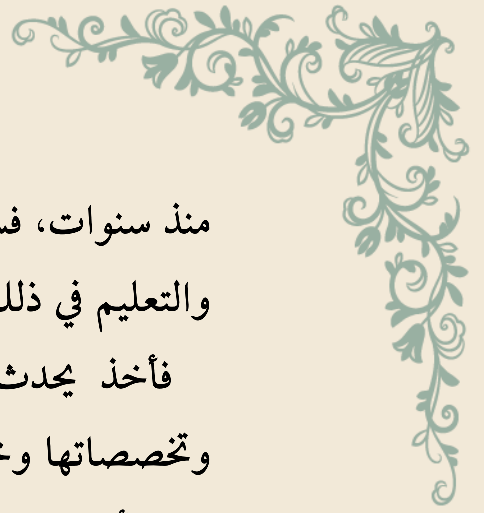
(كتبنا وياما كتبنا ويا خسارة ما كتبنا)

أكثر الخطط بل جميعها لا فائدة منها لأن المؤسسة كانت تسعى للحصول على شهادة الجودة.

جلُّ أعمالنا تحمل نفس الصفة ونفس العار الآبد الهاوي في دركات الفشل والانحطاط.

لا نملك ما نقول إلا أن التخطيط الاستراتيجي يحقق فشلاً تلو الفشل في مؤسساتنا ودوائرنا.

جلست مرةً مع أستاذٍ جامعي تشرفت بالدراسة على يده في مرحلة البكالوريوس، كان قد سافر إلى بلد عربي



منذ سنوات، فسألته عن حاله وأحواله، وعن حالة العلم والتعليم في ذلك البلد.

فأخذ يحدث عن الجامعات ومخصصاتها وميزانيتها وتخصصاتها وخططها وتطلعاتها وما تسعى إليه...

ثم أردف قوله بتحسر وخيبة أمل وقال:

ومع كل هذا التطور الظاهر والخطط الاستراتيجية إلا أن العلم مفقود والتعليم شكلي لا قيمة له، حاله حال كثير من جامعات دول العالم الثالث.

نتمنى أن نقف على خطط معرفيه حقيقيه ظاهرة للعيان نتائجها واضحة وملموسة خطط دعم العلم والعلماء.

خطط لدعم الأفكار الإبداعية.

خطط لدعم المؤسسات العلمية.

نحتاج إلى خطط حقيقية حتى نحقق النجاح في أعمالنا ودراساتنا وأبحاثنا.



قيود التراث

لا شك أن العلم بناء معرفي وهذا البناء له أساسٌ وله شكل ظاهر وإذا أردت أن ترقى إلى السطح لا بد أن يكون ثمة بناء، فلا يعقل أن تعلو في شؤون العلم دون أدنى معرفه بالأصول العلمية والمعرفية.

ونحن اليوم نشاهد ونقرأ بعض المفكرين العرب ممن نهضت همته وعلا شأنه وارتفعت قدمه في الفكر والثقافة يتراكض إلى قامات التراث وبناءاته بالمعول الحاد للهدم والفتك لكل قامة وعلامة، وسمحوا لأنفسهم أن يتهموا جميع التراث بالعيب والنقص، ونادوا بما يعرف بالقطيعة القطيعة الإبستملوجية التي تقضي بأن هنالك في تاريخ العلوم قفزات كيفية تجعل العلم ينتقل بفضلها إلى نظريات جديدة لا يمكن أبدا النظر إليها على أنها مجرد استمرار للفكر السابق لها.

وعلى الضفة المقابلة يقف جمهورٌ آخر يدافع عن التراث ويبالغ أشد المبالغة في اتباع التراث ويتعامل مع التراث على أنه مقدس يَحرم الخروج عنه ويَحرم المساس به ولا ينبغي تجاوزه، ويجعلون أقوال بعض العلماء

واختياراتهم المتعلقة بظروف عصور قبل مئات السنين قيد لازمٌ لا ينبغي تجاوزه ولا الانفكاك منه.

وهذه الطائفة لابد لها من مراجعات، ثم التفرقة بين المقدس وغير المقدس، ولا بد من معرفة أن العلم بناء يزدهر ويتطور وربما اختار السابق شيئاً نحن لا نُلزم به ولا نتقيد بظروف عصره.

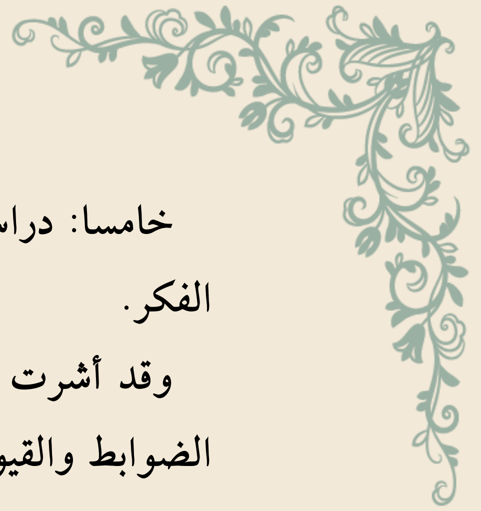
وما يهمنا في هذا الباب أن الحديث عن قيود التراث أمرٌ يحتاج إلى معايير:

أولها: الاعتراف بفضل علماء التراث في كل المجالات، واحترام نتاجهم.

ثانيها: لا بأس في نقد نواتج التراث نقداً علمياً وفق ضوابط علميه ومعرفيه.

ثالثها: محاولة إكمال البناء الذي بدأ في أعماق التراث، فالعلم والمعرفة بناء معرفي كما تقدم بدأ منذ آلاف السنين وما زال يسير في خط مستقيم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

رابعها: التصحيح والتصويب للأخطاء أمر واجب لا يُستغنى عنه.



خامسا: دراسة الظروف والواقع الذي عاش فيه نتاج الفكر.

وقد أشرت في كتابي (أزمة التراث) إلى مجموعة من الضوابط والقيود والتفسيرات الخاصة بهذا الأمر.



دراسة حالة المجتمع

تختلف حاجيات المجتمع من مكان لآخر ومن وقت إلى غيره ولكل مقام مقال، ففي مجتمعاتنا العربية النامية لا ينبغي لنا القفز إلى قمة هرم العلم مباشرة والتفكير في صناعة أشياء تحتاج إلى جهود كبيرة نواجه بهذه الصناعات كبرى شركات العالمية التي عملت مئات السنين حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

لا نريد البدء من قمة الهرم الصناعية علينا التفكير مليًّاً قبل نهضة صناعيه علميه لأن العلم بناءٌ كلما تقدم يعتمد على الأساس الثابت.

فالعربي إذا فكر بالتطور العلمي والصناعي والتجاري والثقافي عليه أن يعد خططاً مستقبلية حقيقية وطويلة الأمد، على العربي أن يعرف طريق النصر على الجهل فيسير فيها بخطوات منظمة لا ميل فيها ولا تباطؤ.

ولا بد أن تتضمن الخطط دراساتك مكثفه لحالات المجتمع وحاجياته، فلا داعي للتقليد الحرفي لمناهج وخطط الآخر، نبحث في المجتمع عن الحاجيات وأولوياتها وترتيبها.

ولا تستطيع الخوض في هذه الخطط؛ لأن هذا الأمر ضرب من تخصص العلوم والمعارف، بل علينا أن نعالج النقص بداية بالبحث والتقصي واتباع المناهج العلمية في ذلك.

حبٌّ العلم

حب العلم يبدأ من تعليم النشء الرغبة في العلم والتعليم واختيار أفضل الطرق وأحسن الوسائل لتحسين صورة العلم.

أذكر أن حصة النحو والقواعد العربية كانت في كل يوم سبت وكانت تمثل الحصه السادسة والسابعة أي بعد الظهر، وكان أستاذ النحو في الصف التاسع والعاشر عالماً من علماء اللغة...

ومع دقة عمله وبراعته في التدريس وحبي وإجلالي له وتقديري لجهوده إلا أن الأستاذ الفاضل الذي أتمنى اليوم أن أراه فاقبل رأسه، كان شديداً جداً جداً على المخطئ وكنا نخشى غضبه وحنقه وسطوته وشدة بأسه.

معلم أخر أديب وشاعر وعالم بفنون اللغة أيضاً أُكنُّ له كل الاحترام والتقدير ولكنه كان أشد الناس وأكثرهم حزماً في مسائل التعليم كان يحمل معه ممحاة مكونه من قطعة ليف ناعم ملصقه على قطعة خشب مستطيله تستخدم هذه الممحاة لمسح ما على السبورة التي يكتب عليها بالطباشير، وكان يضرب رأس الطالب المخطئ بها.

وقصة أخرى عن أستاذٍ في الرياضيات وهو من العباقرة في هذا العلم كان الأستاذ الفاضل يقول للطلاب من يحب علم الرياضيات منكم؟

فيجيب الغالب من طلاَّب الصف لا نحب هذا العلم ثم يسأل من يرغب منكم في التعليم ودراسة الرياضيات فيجيب اثنين أو ثلاثة من الصف الذي يحوي قرابة الأربعين طالباً.

فيتخذ إجراءً قاسياً عرفنا قسوته بعد التقدم في السن وتجاوز مرحلة الرعونة.

الإجراء كالآتي:

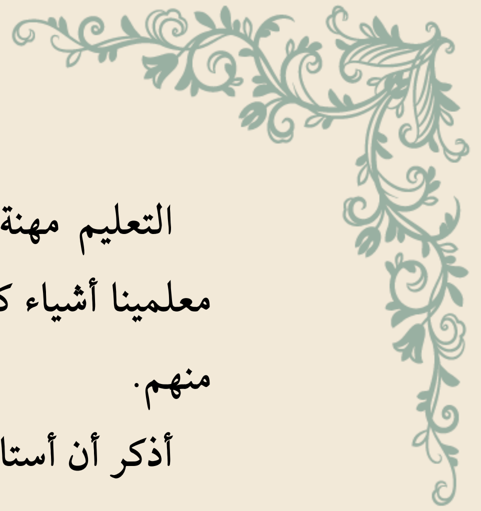
يأمر الأستاذ الطلاب الراغبين في الدراسة وتعلم الرياضيات بالتقدم إلى مقاعد الأمامية.

يقول الأستاذ الفاضل لبقية الطلاب:

أنتم غير موجودين في الصف ولا أراكم ولا أرغب في رؤيتكم أنا أُعلِّم الطلاب الراغبين في الدراسة فقط.

ثم لا يوجِّه سؤالاً ولا كلاماً يُرغِّب فيه الطلاب.

هذه أمثله من أشياء شهدتها أثناء مرحلة التعليم ولا أقول إن كل التعليم كان سيئاً لكن بعض الصور من مراحل التعليم مازلنا نتحسَّى سُمّها إلى اليوم.



التعليم مهنة لها قداستها وقد تعلمنا ولله الحمد من معلمينا أشياء كثيره لكن حب العلم لم نتعلمه إلا من قلة منهم.

أذكر أن أستاذاً فاضلاً من علماء التفسير وعلوم القرآن كان يحدثنا كثيراً عن حب العلم وكان يقول:

لو أن السحر حلال لعملت لكم سحراً حتى تحبو العلم.

فالمجتمع اليوم يحتاج إلى ترغيب وتحبيب بالعلم والمعرفة.



النصب التذكاري

تُخلِّد الكثير من الدول والمجتمعات علماءها بصور شتى؛ فمن الدول من يضع صورة العالم على عملة الدولة الرسمية كما تفعل بعض الدول، أو بوضع نصب تذكاري في الساحات والحدائق العامة.

وهكذا تمجد الدول أصحاب العلم والثقافة ورواد المجد، الذين عاشوا لأجل سعادة الناس، وأعلوا من شأن بلادهم علميا ومعرفيا.

وهذا النصب التذكارية تعطي إلهاماً وتوحي إلى الشعب أن صاحب هذا التمثال أو تلك الصورة قدَّم من أجلكم الكثير وعمل طيلة حياته لإسعادكم.

توحي هذه النصب أن أصحابها كانوا يفكرون في إسعاد الناس ورفعة عقولهم ونهضة الأمم وتحقيق الحرية للجميع، سعى هؤلاء لإسعادكم فعليكم أن توجهوا الهِمَمَ لتُخرجوا من بينكم من يحمل راية العلم والمعرفة مثلهم متحفظين بالفضل الكبير لأهل الفضل الذين سبقوكم مقدرين جهودهم.

وهؤلاء العلماء الذين عاشوا لأجلنا ولأجل سعادتنا ربما كانوا معذبين محرومين من أساسيات العيش، بعضهم

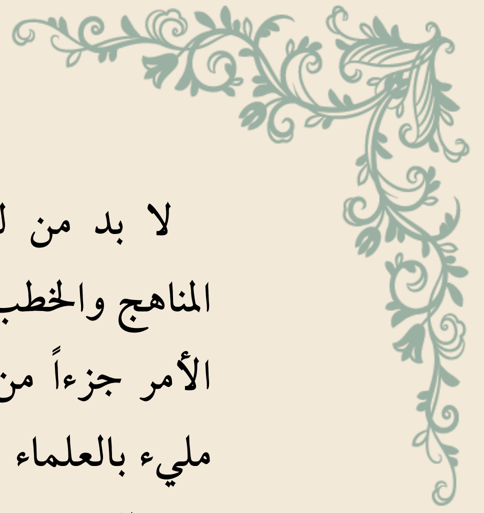
رُفضت أفكاره في عصره لأنها تعارض توجهات سياسية أو غيرها وبعضهم مات فقيراً أو وُجد على سكة حديد...، أو غير ذلك من النهايات الأليمة التي سجلتها كتب التراث.

حدث أحد الفضلاء أن عالماً جليلاً من علماء المسلمين قدَّم كتباً ومؤلفات جليلة القدر عظيمة النفع وجد هذا العالم في الصيف يسير متعباً منهكاً يلبس حذاءً ثقيلاً يلبس في الشتاء وكان الوقت صيفاً فسئل عن ذلك فقال والله لوجدت غيرها للبست.

وهذه صورة من صور ازدراء العلماء في مجتمعاتنا وغيرها الكثير من أعظم الصور للدلالة على أن مجتمعاتنا العربية لا تُقدِّر أصحاب العلم في كثير من الحالات.

ثم إن العالم أو المفكر إن لم يكن قريباً من أهل الحل والعقد يُزدرى ويُهمَّش ولا تقوم له قائمه، وهذا الغالب وللأسف.

ولا نريد من مجتمعاتنا اليوم تماثيلاً في الساحات لرواد العلم والثقافة العربية على مر العصور، لا نريد منهم أصناماً في بلادنا بل نريد التقدير الصحيح والذي ينبغي أن يكون.



لا بد من لفت الأنظار للمتقدمين من العلماء في المناهج والخطب والمواعظ والدروس، لابد أن يشغل هذا الأمر جزءاً من حياه أطفالنا وكبارنا وأن العالم العربي مليء بالعلماء الفضلاء.

وذلك من خلال استخدام جميع الوسائل الحديثة تحتاج إلى مسرحيات للأطفال وتصور المفكرين والعلماء العرب.

نحتاج إلى صور في المدارس لاختراعات العرب، نحتاج إلى صور كثيرة من الفكر والثقافة وأجود الأقوال والأفكار، ونشر أفكار العرب وفلسفاتهم وثقافاتهم....

أما العلماء والمفكرون الذين لا يزالوا على قيد الحياة فهؤلاء لهم علينا حقوق كثيرة، أهمها الرعاية والكفاية حتى لا يبقى العلم جهدا فرديا.



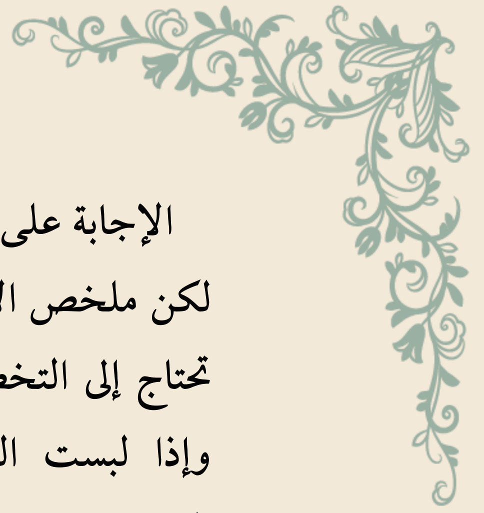
التجربةُ العالمية

السعيد من وُعظ بغيره في السراء والضراء، فإما أن تتعظ بقصص نجاح غيرك فتنجح، وإما أن تتعظ بقصص فشل غيرك فتنجح أيضاً.

خاضت الكثير من الدول قصص نجاحٍ عظيمه، كان لهذه القصص صدى واسعا في حياة البشرية، فلماذا لا نتعظ بهذه القصص ولماذا لا نجعل نجاحنا كنجاحهم؛ ولا يعني أن ما ينطبق على مجتمعهم بشتى تفاصيله ينطبق على مجتمعنا حذو القُذَّة بالقُذَّة، فكل مجتمع له خصوصياته وأحواله لكن ومع الفوارق الزمنية والمكانية والاجتماعية إلا أن الكل متساوٍ في التطوير وقبول التحديث والتجديد.

أوروبا وثورتها مثالٌ عظيم للانتصار على الفقر الثقافي والفقر الاجتماعي والفقر العلمي والفقر السياسي، تجربةٌ عظيمه تحترم لنتائجها مع خلافنا واختلافنا في بعض تفصيلاتها ومجرياتها.

عندما فكر العرب بالثورات ضمن ما يسمى بالربيع العربي تأخروا عشرات السنوات إن لم يكن مئات ولكن لماذا؟

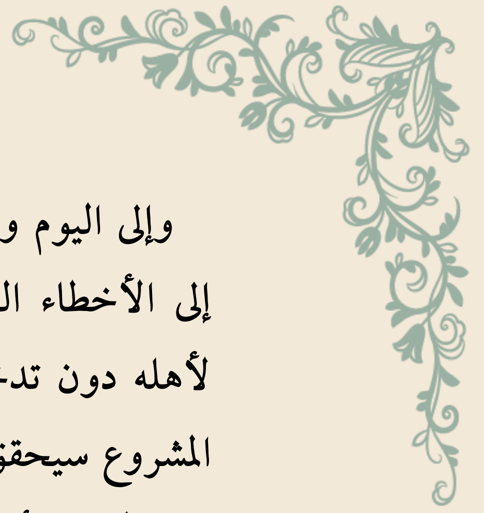


الإجابة على هذا السؤال تحتاج كتباً وليس كتاباً واحداً لكن ملخص الأمر أن الثورة العلمية والثقافية والمجتمعية تحتاج إلى التخطيط والتنظيم والدراسة في كل المجالات، وإذا لبست الثورة ثوب الفوضى فأقرأ على البلاد السلام.

الطريق إلى النهضة شائك وصعب وأهم ما في طريق النهضة هو معرفه الطريق والاهتداء إلى سبيل الخلاص.

شهدت مرة إدارة مشروع من مشاريع وكنت قريباً من المقاول وصاحب العمل وكانت كلفة المشروع تقدر بحوالي عشرة ملايين دينار أردني وهذا المشروع كان يعاني من كثرة الاقتراحات من قبل صاحب العمل والتخبط في الآراء والأفكار، وكان يشتكي المقاول من التغييرات والتعديلات على المشروع، وهذا الأمر مرهق للعمال وصاحب العمل وللمقاول وكان الكل يشتكي فبعد إتمام بعض الأعمال التي أخذت أياما يزور أحد أقرباء المالك المشروع ويبدا يقترح بما عنده من آراء فيستمع المالك لرأيه ويغير كل ما تقدم تم المشروع ولله الحمد وقد زادت مدة العمل المقدرة أكثر من سنه بسبب التخبط في الآراء.





وإلى اليوم وبعد أزيد من عشر سنوات ما زلت أنظر إلى الأخطاء الظاهرة في هذا المشروع ولو ترك العمل لأهله دون تدخل من لا يحسن إلا أن يقترح فتأكد أن المشروع سيحقق نسب نجاح أكبر مما هو عليه الآن.

والحاصل أنه علينا أن نستفيد من خبرات الآخر وعلينا أن نتعلم مناهج التغير والتجديد، وعلينا أن نحتفظ بخصوصيات مجتمعاتنا الفكرية وأن التجديد لا يعني نسف السابق بمجرياته بل التجديد فكرٌ قائم على الاستفادة من فكر الآخر ومن قيم المجتمع ومن حقائق الواقع.

ومما يستخلص أيضاً من هذا الباب أن التفكير يجب أن ينضبط وفق قواعد العلم، والصناعات والتجارة والزراعة الكل يجب أن يتقيد بقيود العلم.



قِمَّة الهرم

العلم والمعرفة والتقدم والتطور والتجديد والتحديث، مصطلحات لا تنفك عن بعضها ويجب أن نأخذ بها جميعاً ونلاحظ تعانقها في مجريات الحياة، وهذه الأمور إن كانت تعتمد على أرضٍ صلبه وأساسٍ قوي تحقق لها الرقي والارتقاء والرفعة والنماء.

العلم يحتاج إلى مساند وهذا المساند يجب أن يتولى شؤونه ويرعاه، العلم يتيم دون مساندة، العلم طفل بين مجموعة فيلة؛ فمنها فيلٌ عظيم يدعى الجهل ومنها فيل آخر يدعى الواسطة والمحسوبيات وفيل لا يعترف بقيمة العلم وهو الإدارة الفاشلة وغير ذلك الكثير من مثبطات التقدم والتطور.

وهذه الفيلة التي تحيط بالطفل الصغير يجب أن يتغلب عليها العلم، فالعلم يحتاج إلى ركن شديد يأوي ويستند إليه.

وأعظم المساندين للعلم رأس الهرم، ورأس الهرم ليس فقط من يتولى أمور الدولة بل رأس الهرم في البيت والإدارة وغير ذلك. كل مسؤول هو رأس الهرم وهو ما يجب إقناعه بأهمية العلم وفائدته.

إذا وصل المتفوقون والعلماء إلى سيادة شركاتنا وإداراتنا ومؤسساتنا الرسمية وغير الرسمية عندها سيكون للنجاح الحظ الأوفر والأكبر.

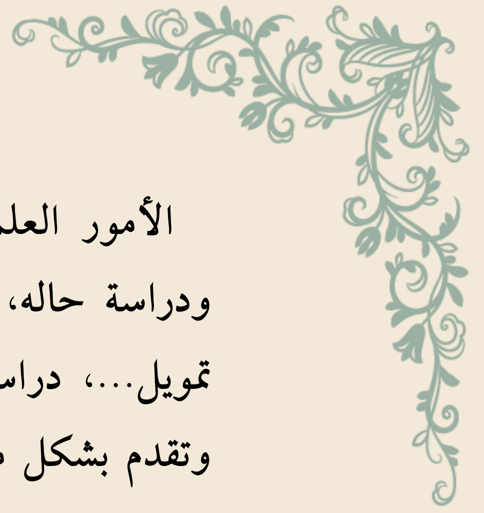
الوصول إلى رأس الهرم ليس أمراً سهلاً بل يحتاج إلى العمل ويحتاج الصبر فإقناع مسؤول بالفكرة أمرٌ يحتاج إلى تخطيط وترتيب، وبعد الوصول إلى القمة يجب أن يتبنى المسؤول العلم بحرفية وتقنية.

ما أجمل أن تكتب الخطة للمسؤول ضمن دراسة موجزه ومختصرة..

ما أجمل أن نضع النقاط على الحروف في كل عمل وفكرٍ وما أجمل أن نخطط ونرسم خطوط النجاح لأعمالنا التي يجب أن تبنى على العلم...

ما أجمل أن نضع النتائج المتوقعة عن العمل بعلم ودراية...

عندما كنا نتعلم دراسة الجدوى في فترة تعليم فنون الجودة وتطوير الأداء المؤسسي، كنا نتعلم أموراً لو طبقت على أرض الواقع سلمت كثير من أعمالنا من العشوائية والتخبط....



الأمور العلمية والمعرفية تحتاج إلى دراسة جدوى، ودراسة حاله، ودراسة دعم، ودراسة تطبيق، ودراسة تمويل...، دراسات كثيرة تتعلق بالعلم والمعرفة توجز وتقدم بشكل ميسَّر للمسؤول حتى يعرف ماهية العلم وقيمته وقيمة نتائجه.

إذا عرف المسؤول كل تفصيلات العملية والعلمية وما يتحقق من خلال العلم والنتائج التي تترتب عليه لا أضن أن عاقلاً يقود الناس ولا يتجه نحو العلم والمعرفة، وإن رفض المسؤول السبيل العلمي والطريق النهضوي دون سبب سوى أنه جاهل لا رغبه له بالمعارف فلا أحقية له بالمنصب الذي تولاه.



تناسخ الأفكار

شاهدت مرة برنامجاً ثقافيا يتحدث عن (فرويد) وكانوا يتحدثون عن إنتاجه العلمي الكبير، ثم ذكروا أن بعض علماء الجينات والوراثة يبحث عن قطرة دم لـ (فرويد) من أجل استنساخ (فرويد جديد) شاهدت هذا البرنامج الثقافي على شاشة التلفاز منذ سنوات طويله، وما زلت أذكر إلى الآن هذا الأمر.

وفي نظري أرى أنه لا حاجه لاستنساخ إنسان جديد مثل فرويد -طبعاً إن كان هذا ممكناً- لا نريد شخصاً أخر مثل فرويد فقد زرع فرويد أفكاره في عقول الكثير، ولا تزال الدراسات والأبحاث تكتب حوله-مع تحفظنا على كثير من آرائه في التحليل النفسي، وتقديرنا لجهوده في خدمة الإنسانية-.

وما أريد أن أصل إليه هو أن استنساخ الأفكار خير من استنساخ الأجساد.

وهذا الأمر استنساخ الأفكار له معوقات ومتطلبات كثيره أشرت إليها في كتابي (تناسخ الأفكار) الذي أرجو وآمل أن يرى النور قريباً بعد هذا الكتاب، حيث جمعت

فيه سُبل الوصول إلى استنساخ أفكار العلماء الأفاضل، فنحن لا نريد شيئاً أكثر من التفكير.

الترتيبات الإدارية

في حديثنا عن رأس الهرم مثلنا أن العلم لا بد له من مستند قوي ينهض بحاله ويتكفل بأموره وشؤونه، ولا بد للعلم أيضاً من منصة تحمله وتُقلُّه وتُدبر شؤونه ونحن نستغرب اليوم من إدارة شؤون العلم وعدم العناية بالترتيبات الإدارية المحيطة بالعلم والعلماء، وحين تنظر إلى مشاريعنا البحثية تجد فيها مجانية للصواب في كثير من الأصول والترتيبات الناظمة لها.

ومن أمثلة ذلك:

الدارسات والأبحاث التي تكتب وتنشر في المجالات البحثية؛ حيث يبدو الترتيب وحسن الإدارة غالبٌ على شؤونها، وأنت تطالع العناية بالفاصلة والنقطة وتنسيق الكلمات والخطوط...، وهذه الترتيبات تصل إلى حدٍّ الممتاز، لكنها لا تخو من تساؤلات

ما هو الأثر العلمي لهذه الدراسات والبحوث على الواقع، ولماذا تبقى هذه الدراسات بين رفوف المجلات وربما لا يطلع عليها سوى بعض الباحثين فقط، وهل من يصح أن نهتم بالشكليات فقط، وإلى متى ستبقى الأبحاث

والدراسات الهدف منها الترقية وتحسين صورة السيرة الذاتية.

أشياء كثيره تحيط الدراسات والأبحاث، منها الإداري ومنها العلمي ومنها المجتمع ومدى استفادته من البحث العلمي.

لا بد أن يكون ضمن شروط قبول الأبحاث تقيد الباحث بدراسة أحوال المجتمع، وهذا شرط عملي يستفيد منه المجتمع فكرياً وعلمياً وسياسياً.... وغير ذلك

ومما ينبغي احترامه وتقديره ما تقوم به جامعة الأمير نايف للعلوم فهي تقدم مثالاً يُحتذى في مجال البحث والدراسات من خلال جائزة الأمير نايف للعلوم، فهي تقدم جائزة مقدارها (١٠٠) ألف دولار للباحثين في مجال الدراسات كجائزة أولى وتقدم غيرها من الجوائز ومن أهم شروطها أن تكون الدراسات متضمنه حلولاً واقتراحات عمليه يمكن تطبيقها، ويرى أثرها على أرض الواقع.

وخلاصة ما تقدم أن من ترتيبات العلم العناية من قبل دور الأبحاث ومراكز الدراسات بمعالجة الواقع.

والترتيبات الإدارة التابعة لشؤون العلم لا تقف عندما تقدم من اقتراحات بل تشمل المحيط بكل أعمال البحث والدراسة، وتشمل الشؤون المالية والنفقات من حيث ترتيبها وإدارتها.

ومن أهم الترتيبات التي ينبغي التركيز عليها فكرة الباحث والعالم والمخترع والمستكشف؛ حيث تلوح في الأفق أفكار عائمة وما لم تقيد وتوثق فستضيع إذن.

فكرة العالم تلوح في أفقٍ فارغ إذا لم يحسن الناس التصرف معها ستبقى في الأفق الفارغ وربما يلتقطها غيرنا...

فكرة العالم في النجاح والتفوق تفوق كل التوقعات فإما حياةٌ وإما هباء.

قبل حوالي عامين سمعت أن شابا مخترعا يبحث عن ممول يدعمه لإتمام مشروعه البحثي، يسأل هنا وهناك يبحث عن صاحب مالٍ يهتم بالعلم والعلماء فلم يجد ممولاً في بلادنا.

وللأسف هاجر الشاب إلى دولة غير عربية وفَّرت له الدعم والتمويل وتم مشروعه وحقق نتائج عظيمه، وكأن

هذا المشروع وغيره من المشاريع العرب من خيرها ومن خير عقولهم.

ولا أريد أن أتحدث عن هذا المشروع لأنه تم بيعه من المخترع لرجل عربي، وأخذ براءة اختراع باسم رجل آخر، وقامت بتبنيه دولة غير عربية، وعندما سُئل المخترع عن سبب البيع فبرر موقفه بحاجته وفقره.

توبة العقل

خطأ العقل له تبعات عظيمه وأخطارٌ كبيرة ربما لا يدرك الناس قيمتها ولا يعرف أحدٌ ماهية هذه الأخطاء التي تستوجب التوبة.

جهالة الفكر... ذنب يستوجب التوبة.

حماقة العقل... ذنب يستوجب التوبة أيضاً.

استخدام العلم ضد البشرية... ذنب يستوجب التوبة.

الانشغال بقضايا جدليه لا طائل منها... خطيئة تستوجب التوبة.

كتب الردود ونقض الأقوال وحشد الأنصار... خطيئات تستوجب التوبة.

حرمان الأطفال من حريه التفكير وتحجير عقولهم... خطيئة عظيمة تستوجب التوبة.

عرفت البشرية أخطاء عظيمة ضد الفكر كحرق المكتبات وقتل العلماء، وكبت وتكميم أفواه العلماء والازدراء لجهودهم ونُكران سعيهم....

أخطاءٌ كثيرة دمرت وأخرت عجلة العلم عن التطور...

يركز علماء الدين على التوبة من الخطايا التي لا تتوافق مع الشرائع...

وفي مجال الفكر والعلم والثقافة لا بدَّ من التركيز على توبة العقل من كل خطيئة ارتكبها ضد العلم والعلماء.

وهذا الموضوع (توبة العقل) لا يكفينا في هذه الورقات إلا الإشارات إليه وأسأل الله العلي العظيم القدير أن يوفقني لإفراده في مؤلف خاص... رب عونك.

فضاءات المعرفة

حقق البشر تطورات علمية عظيمة ومتسارعة، فضاءات ما كان يرجو أن يصل إليها العقل البشري وتميزت هذه الفضاءات الجديدة بأنها تمهد الطريق لغيرها من العلوم والمعارف، وتفتح الباب على مصراعيه للمخترعين والمكتشفين...

عندما نقرأ في تاريخ العلوم عن صناعةٍ أو اختراعٍ نجد أن هذا الاختراع له سلسلة سار فيها حتى وصل إلى هذه الصورة التي نشاهدها اليوم، وهذا غالبٌ على الكثير من المعارف والعلوم.

خذ مثلاً الحاسب الإلكتروني (جهاز الكمبيوتر) مرَّ بسلسلةٍ عظيمة حتى وصل إلى ما وصل إليه ولا يعني الوقوف عند هذا الحدّ، بل هذا الاختراع سليلُ اختراعات قبله وبعده أيضاً.

في مناهجنا الدراسية يتم الحديث عن بعض الاختراعات والاكتشافات وكيف بدأت ومتى ظهرت، وتُجرى التجارب والتدريبات في الصفوف الدراسية لكن؛ كم من المعلمين يسأل:

وماذا بعد...

ماذا سننتج نحن...

ماذا سنقدم....

بدأ الاختراع....

فلماذا لا نكمل الطريق...

ظهر الاكتشاف فهل سنتم ما بدأ الأول، أم نكتفي بما قُدِّم لنا وحسب...

أسئلةٌ كثير يجب أن نَقف معها حتى نواكب عجلة التطور، ونعيش في دائرة الحياة الصحيحة.

زكاة العلم

العالِم يحرص على تقديم يد العون والمساعدة للناس، ولا بد أن تكون له إسهامات في العمل التطوعي، وهذه زكاة علمه الذي تعلّم، وهذه الزكاة العلمية خدمات تقدم للمجتمع دون مقابل أو مقابل أجر بسيط، وقد قدم الكثير من أهل العلم زكاةً لعلومهم ومشاركات في الأعمال التطوعية، وكان لها الأثر الواضح في حياتهم العلمية والعملية، وسأضرب مثالين من واقع حياتي ومما شاهدت:

المثال الأول: **الدكتور (رضوان السعد)** طبيب الغلابى -رحمه الله-.

وهو أحد الأطباء في محافظة إربد شمالي الأردن، هذا الطبيب كان يشعر بمسؤوليته العظيمة تجاه مجتمعه، فكان يعالج مقابل أجرة (ربع دينار أردني) وهذا المبلغ يعتبر مبلغاً زهيداً في حين كان غالب الأطباء يأخذ عشرة دنانير وبعضهم يزيد عن ذلك.

ثم قام طالب مجموعة من الأطباء برفع الأجر..، فرفع الأجرة إلى نصف دينار، ثم إلى دينار ثم إلى دينارين بعد الطلبات المقدمة من أقرانه.

وقبل كتابة هذه الورقات بساعات علمت أن ابن الدكتور رضوان السعد بعد وفاة والده قام بفتح العيادة وبنفس الأجر الذي كان يأخذه والده، فأَلْفُ تحية إجلال لهذا الطبيب ولابنه البارّ الذي خطى خطوات الوالد رحمه الله.

المثال الثاني: (فاخر الدين عودة):

شاب يتميز عن أقرانه بأخلاقه وأدبه يمشي بخطوات هادئة، يتكلم بعبارات لطيفه ملؤها الاحترام والتقدير، تشرفت بمجاورته مدة أربع سنوات، وقد وفَّق الله هذا الشاب إلى إنجاز مجموعة كبيرة من الأعمال العلمية والمعرفية والخيرية، وفي ذات الوقت لم يتجاوز فاخر مرحلة الدراسة الجامعية، وقبل طباعة الكتاب أتم فاخر الدين دراسته الجامعية في (جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية)، وتاليا عرض لأهم الإنجازات التي قدمها فاخر الدين:

الاختراع الأول: خوارزمية التوحد (autism algorithm): عبارة عن طريقة تحفيزية جديدة تساعد الأطفال على التواصل مع العالم الخارجي وفهم أحاسيسهم وأفكارهم.

الاختراع الثاني: (brain stroke detection) وهو جهاز قادر على كشف الجلطات الدماغية قبل حدوثها.

الاختراع الثالث: (autism degree) وهو جهاز تحديد درجة التوحد.

الاختراع الرابع: (eye contact monitor) جهاز قادر من خلاله تحديد نسبة التواصل البصري للطفل.

ومن الأعمال التي قدمها فاخر أيضا

ستة مشاريع في الأمن والحماية.

موقع جمعية أمراض الدم

مشاريع متعلقة في الدماغ، وكانت متعلقة في الأطفال الذين يعانون من فرط النشاط وقلة التركيز واستطاعة حساب مدى التركيز رياضياً.

كما كان المشروع الثاني متعلق في الم الرأس وتخفيفه عن طريق الذبذبات والموجات.

مشروع الورم الدماغي وتحديد حجمه.

مشروع الأسنان: ومن خلاله يستطيع الشخص معرفة مدى قوة أسنانه ودرجة الصفار وتحديد إذا كانت أسنانه تحتاج إلى تقويم أو لا وإدخال الذكاء الاصطناعي عليه.

مشاريع مختلفة عن الذكاء الاصطناعي والأنظمة الخبيرة.

برمجة أنظمة صوتية خاصة للأشخاص الذين يعانون من الاكتئاب.

خبرة تطوير الأجهزة الطبية وتصميمها حيث كان فاخر أصغر مطور أجهزة في الشركة العالمية التي كان يعمل معها.

أما بخصوص زكاة العلم عند فاخر فقد كان يقدم خدمة علاج مرضى التوحد والاكتئاب بالمجان ولا يأخذ أي مقابل، ويعتبر هذه الخدمة من باب زكاة العلم، وكانت نسبة الشفاء وتجاوب الأطفال (مرضى التوحد) تتجاوز الثمانين في المئة ٨٠٪.

وهذان المثالان شاهدان على أن زكاة العلم مطلوبة، ولا بد أن تلازم فكر وعقل العالم، أينما حل، ومهما كانت الظروف والأحوال، وأن التطوع سبيل النجاح والقبول عند الله ثم عند المجتمع.

العلم وبر الوالدين

ربما يظن البعض أن في هذا العنوان تجاوزاً وخروجاً عن المعهود فالعلم مادة جافة لا تعرف العاطفة ولا تلتفت إليها، لكن بالرغم من هذا إلا أن بر الوالدين له أثرٌ في حياة العلماء الأفاضل.

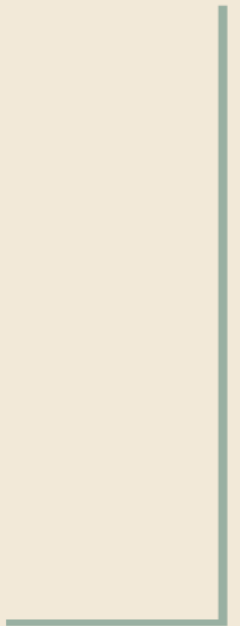
انقطع عالمٌ جليل القدر عن حياته العلمية سنوات جلس فيها مع والدته المريضة يخدمها بنفسه، وبعد وفاتها ملأ الأرض علماً وتوجيهاً وإرشادا.

طبيب يداوي الناس يكتب الشفاء على يده سأله أحد الأصدقاء كيف يُكتب الشفاء على يدك؟

فأجاب: كنت أخدم والدي حتى توفاه الله، ثم بدأت أخدم والدتي سنواتٍ أيضاً حتى توفيت، فرحمهما الله، وكلما بدأت معالجة إنسان، استحضر في ذهني برَّهما وأقول: يا رب أسألك ببرِّي لوالدي أن تشفيه، فيكتب الله الشفاء لكثير من المرضى على يديه.

قصص مثل هذه تلفت أنظارنا إلى اعتراف كثير من العلماء بأثر الوالدين في العلم وتحقيق أعظم النتائج.



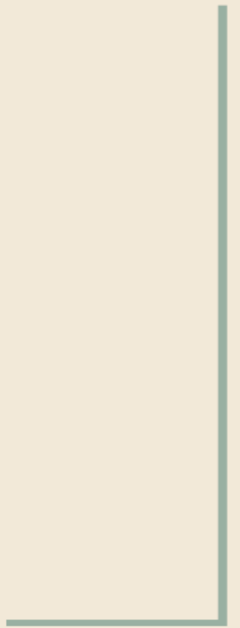



الخاتمة

ليس من السهل أن أكتب خاتمة لهذا الكتاب...

ولكن هذه بداية الطريق.



مساهمات جمهور القُرّاء

أخي القارئ الكريم....

أختي القارئة الكريمة...

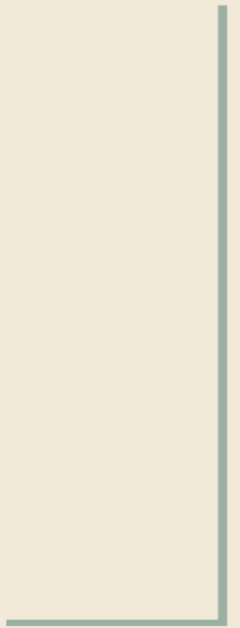
إن كُنت من أهل العلم في أي صنف من صنوف المعرفة، ونالك من عذابات العلم شيء، وكانت لك قصة فلا تبخل علينا بإرسالها.

تمَّ الكتاب بطبعته الأولى وهي صورة مُصغَّرة لما نويت كتابته، ولا يزال عندي الكثير، ولا شك أن عندكم أكثر وأكثر.

خلدون ربابعة

Khr26222@gmail. com



فهرس الموضوعات

كتب أخرى للمؤلف

١. أبجديات الكتابة وجدلياتها
٢. ابن الحكيم
٣. الأحاديث المسلسلة بين الرواية والدراية
٤. آداب السفر
٥. إدارة الوقت
٦. إرهاب المستقبل
٧. أزمات في تاريخنا الإسلامي
٨. أزمة التراث
٩. أزواد الركب في الحج والعمرة
١٠. أسلمة الواقع
١١. بكاء النص
١٢. تحقيقات من كتب السادة الأحناف
١٣. تذكرة الفضلاء في إصلاح النزلاء
١٤. التطبيقات النحوية على متن الآجرومية
١٥. تفسير سورة محمد
١٦. تناسخ الأفكار
١٧. الجمع بين القراءات القرآنية في سورة الإسراء
١٨. حواضن الفكر والنهضة
١٩. دراسات وأبحاث القرآن الكريم وعلومه
٢٠. الدروس الفقهية الميسرة
٢١. دور الأخلاق الإسلامية في الإصلاح
٢٢. الرسالة السامية
٢٣. صراع المنهج
٢٤. صفاء نفس
٢٥. طاعة ولي الأمر من خلال أحاديث الصحيحين
٢٦. عذابات العلم
٢٧. عقيدة الأخلاق
٢٨. على بينة
٢٩. فتاوى الصيام
٣٠. فتح القريب المجيب
٣١. للفقراء
٣٢. المجتمع الصغير
٣٣. مجتمع ما بعد الأزمات
٣٤. مختصر التطبيقات النحوية والصرفية
٣٥. معالم التفسير المقاصدي سورة الحجرات نموذجا
٣٦. معالم تربوية من الأحاديث النبوية
٣٧. مغاليق مقالات في نقد الواقع
٣٨. مقاصد القرآن الكريم دراسات وأبحاث
٣٩. المناهج التقويمية والسلوكية لأسر الإرهابيين
٤٠. المنظومة التعليمية وأثرها في النهضة والإصلاح
٤١. المنهج الإسلامي لحل مشكلات الأسرة
٤٢. المنهج النبوي في حل مشكلات الشباب
٤٣. موت النص
٤٤. موعظة الحبيب من دروس الترغيب والترهيب
٤٥. نماذج من الأحاديث المنتشرة على شبكات التواصل الاجتماعي
٤٦. هجرة الحبشة
٤٧. الهجرة غير الشرعية والاتجار بالبشر
٤٨. واعملوا صالحا

والحمد لله رب العالمين.

عزابات العلم

خلدون

عبد القادر حسين ربابعة

الطبعة الأولى

٢٠٢١م

للتواصل مع المؤلف مباشرة

Khr26222@gmail. com

+962777002528



عذابات العلم
خلدون ربابعة
الطبعة الأولى
٢٠٢١م
حقوق الطبع للمؤلف

